طائر الليل الأسود

عـزت السعدنى



المكتبـة الأكاديميـة

طائر الليل الأسود

عزت السعدنى

طائر الليل الأسود

الناشر
المكتبة الاكاديمية
١٩٩٦

حقوق النشر

المكتبة الأكاديمية

١٢١ ش التحرير - الدقى - القاهره

تليفون: ٣٤٨٥٢٨٢ / ٣٤٩١٨٩٠

تلكس ABCMN U N ٩٤١٢٤

فاكس ٣٤٩١٨٩٠ - ٢٠٢

* كأن تنينا أسود بسبعة رؤوس ترسل النار والدمار فى كل مكان ودار قد خرج إلينا من قلب الأساطير اليونانية القديمة.. يدمر ماشاء له التدمير.. ويقتل ماشاء له القتل ويعبث ماشاء له العبث فى كل ماشقينا العمر كله فى بنائه وتقويمه وتقديمه للدنيا.. بوصفنا صناع الحضارة وأول من علمنا البشرية كلمة زرع.. وكلمة كتب.. وكلمة قرأ..

هذا التنين الأسود برؤوسه السبعة المخيفة الذى أفلت من عقاله اسمه الإدمان..!

ولقد استطاع هذا التنين أن يدمر كل ما هو جميل وكل ما هو خير وكل ما هو حق فى حياة الإنسان المصرى الذى تقول بطاقته الشخصية أن عمره الحضارى قد تجاوز الخمسة آلاف عام فى سمع الزمان.. بعد أن تسللت كل رأس من رؤوسه السبعة إلى الدور الآمنة لتسرق منها

الأمان والأحلام الجميلة.. وإلى القلوب الشابة العفية الفتية لتحولها إلى حجارة صماء بكماء!

ولكونها تعيش وتحيا على دماء البشر فقد أحاطت رؤوس الشر السبعة بطوابير جيل الأمل الذى نرجوه من الدنيا.. تفرغ سمها فى عروقهم.. حقنا وبلعا وشما!

إن كل بيت فى مصر يعيش الآن فى حالة رعب حقيقية.. فمن يدرى من هو الضحية التالية لهذا القاتل المأجور الذى انطلق دون رقيب أو حسيب ودون أى بادرة منا بإيقافه عند حده.

من المؤكد أن هناك يدا خفية تحرك هذا التنين الأسود بالريموت كونترول.. ولكن إذا كان هناك من يحاول أن يتربص بك ليقتلك.. فمن حقك أن تدافع عن نفسك.. عن دارك.. عن عيالك.. عن غد هذه الأمة الطيبة.. ولكن هل نحن حقا نفعل ذلك؟

لقد قلت فى ندوة لخريجى كليات الصحافة: إن ثمة مخططا خارجياً لتدمير الإنسان المصرى من الداخل.. ولكن علينا أن نجهض هذا المخطط الأسود لحقن شرايين الإنسان المصرى بسموم الهيروين والكوكايين والماكس فورت. وقلت: إن كل كيلو جرام هيروين يتم ضبطه فى المطارات والموانئ المصرية يتسلل فى مقابله خمسة كيلو جرامات من هذا المخدر الفتاك إلى سوق المخدرات فى مصر..

وانتهينا فى الندوة التى ضمت نخبة من المسئولين وكبار رجال الدولة وأساتذة الجامعات ورجال الإعلام والشرطة: إن رقابة حدودنا وموانينا ومطاراتنا فوق طاقة الشرطة المصرية ورجال الحدود المصريين..

وانتهينا إلى أن إعدام تجار المخدرات علنا وبسرعة وعلى مشهد من كل الناس هو الحل.. وإن كان ذلك مستحيلا قانونا!

وانتهينا إلى أنه لابد من مصادرة أموال تجار المخدرات لمصلحة المدمنين لإقامة مصحات لعلاجهم.. بدلا من التلطم على أبواب مستشفيات حكومية أو خاصة تزيدهم إدمانا فوق إدمانهم!

وانتهينا إلى أن البيت المصرى هو المسئول الأول عن انحراف أبنائه عن الطريق..

وانتهينا إلى عشرات من الحلول.. ولكن..

ولكن لنقولها بصدق: البيت المصرى الآن لم يعد هو البيت المصرى الذى نعرفه والذى تخرجنا منه.. أين هو الأب ذلك الدرع الحامى للأسرة.. وأين ذهبت الأم بحنانها وحبها الكبير؟

ولكن لنقولها بصدق: إنه على الرغم من المآسى الدامية والحكايات التى تقطر ألما وندما ودما وإدمانا.. على الرغم من حالة الرعب التى تظلل البيت المصرى الآن.. إلا أن أحدا لم يتحرك بنفس القدر الذى وصلت إليه المأساة فى حياتنا!

الشرطة وحدها لا تستطيع أن تمنع سيل المخدرات من التدفق إلى الداخل!

القانون وحده أصبح عاجزا فى ظل عدم تنفيذ الإعدام فى طابور طويل من المهربين وتجار السموم.. وحسب معلوماتى يوجد خلف

أسوار السجون نحو ٢٨ محكوما عليهم بالإعدام فى قضايا جلب وإتجار وترويج مخدرات.. ينتظرون الإذن بإرسالهم إلى حبل المشنقة.. ولكن هل يذهبون إليها حقا؟

وحجم العلاج من الإدمان فى بلدنا حسب معلوماتى لا يتجاوز ٢٠٠ سرير حكومى وغير حكومى!

أما العلاج الاستثمارى من الإدمان فإنه يكلف فوق الطاقة.. ما بين ١٥٠ جنيها و ٢٥٠ جنيها فى اليوم الواحد.. من يقدر عليه.. بعد أن يفقد المدمن كل ماله فى الدنيا من مال ومتاع وعيال ولا يبقى له إلا وجه الله الكريم!

والأرقام تحكى أمامى وتقول: إن أربعة مليارات جنيه.. يعنى أربعة آلاف مليون جنيه تأكلها تجارة المخدرات فى مصر كل سنة الآن!

كما أن علاج المدمن يتكلف فى الشهر الواحد نحو ١٠ آلاف جنيه.. بأسعار هذه الأيام وربما أكثر. فمن أين للمدمن بها؟

الأكثر مرارة وألما أن دراسات خبراء مجلس الشورى تؤكد أن أكثر من ٦٥٪ من الذين يعالجون من حالات الإدمان أشخاص خطرون جدا.. يمكن أن يسرقوا.. يحتالوا.. يقتلوا.. إذا لم يجدوا الجرعة فى موعدها!

لقد خاضت مصر حروبا بلا عدد. بل أن التاريخ المصرى كله ما هو إلا صفحات للانتصار أو الانكسار.. ووصلت حدود مصر أقصى اتساع

لها أيام تحتمس الثالث الذى يلقبونه فى الغرب بنابليون العالم القديم - وإن كنت أفضل أن يقال ومن خلفى طابور طويل من المؤرخين وكتاب التاريخ أن نابليون بونابرت هو تحتمس العالم الحديث: - ثم لآخر مرة أيام إبراهيم باشا الذى قاد طابورا من الجنود المصريين حتى وصل بهم إلى إعتاب أوروبا.

ولكن أخطر الحروب على الاطلاق تلك التى لا تطلق فيها رصاصة واحدة.. ولا ينزف فيها أحد دما.. إنها الحرب التى نعيشها الآن.. ونعنى بها حربنا وجهادنا الأكبر ضد مثلث الشيطان.. وأبعاده الثلاثة: المهرب والتاجر والمدمن.

ومن أجل خلاص هذا الشعب من هذا الخطر الذى يجثم فوق صدره ويكاد يكتم أنفاسه.. ومن أجل أن أعرف.. وأن أفهم كان لابد لى أن أقترب أكثر من حجم هذه المأساة التى نعيشها كلنا.. نتحسسها بمشاعرنا.. نتلمسها بعيوننا.. نحملها زادا وزوادا فى قلوبنا.. ذهبت إلى التنين فى عقر داره.. لست بالطبع البطل الأسطورى داريوس الذى صارع التنين ذا الرؤوس السبعة التى تطلق النار والشرار.. ولكنى ذهبت إليه مرات كثيرة ومعى فريق عمل ظل على مدى ٩٠ يوما يدق أجراس الخطر من خلف ميكروفون الإذاعة.. كان معى إسلام فارس الفنان المخرج المتمكن.. والإذاعيان المتألقان ماجدة شرف ومحمد فؤاد.. عشنا معا داخل مصحات علاج المدمنين.. وخلف أسوار السجون مع الذين يمضون سنوات عقوبة طالت أو قصرت.. بتهمة التعاطى أو الاتجار

حسب التعبير القانونى.. وذهبنا إليهم تحت جنح الليل وفى عز شمس الظهيرة إلى حارات ودروب أحياء بولاق والبساتين ومصر عتيقة والجيارة وروض الفرج نقف معهم فى طوابير طويلة تحرسها الكلاب المدربة لكى يحصل كل واحد منهم على جرعة المخدر اليومية.. حقنا فى الوريد.. أو شما بالأنف..

ولكم كان مؤلما وموجعا ماخرجت به من ملفات الهم والكرب والحزن الدفين.. من أنهار تجرى بالدموع والآهات.. من تلال تنوء بالمآسى والمحن.. من المر والصبر على شفاه تشققت من طول ما ضبرت.. من طول ما عانت.. من طول ما سهرت فى انتظار فرج لا يأتى.. فى انتظار شمس لا تشرق أبدا!

وهاأنذا أغمس قلمى فى مداد الألم والشجن والمواجع لأكتب وأسجل بالكلمة وقائع هذه الحرب الشرسة التى نخوضها الآن دون سلاح أو طائرات ودبابات وبوارج أو حتى رصاصة واحدة من بندقية!

إنها حكايتى مع الذين سقطوا فى براثن الإدمان.. وعضهم ثعبانه بنابه الأزرق.. والذين أصبحوا مجرد حطام إنسان.. لاهم بالبشر ولاهم بالأشباح.. لاهم بالأحياء ولاهم بالموتى..

إنها حكايتى مع الذين أرادوا تدمير مصر من الداخل.. مع زبانية إبليس الذين باعوا ضمائرهم للشيطان وتاجروا بالسموم البيضاء والزرقاء والسوداء.. وظنوا أنهم قد امتلكوا الدنيا ومن عليها.. فإذا بهم كطائر حلق وارتفع ثم سقط من حالق إلى سابع أرض..

إنها حكايات دامية حزينة حزن الدهر كله.. كل واحدة منها تصلح أن تكون فيلما سينمائيا أو مسلسلا تليفزيونيا يكشف لنا أسرار هذا المجتمع وخباياه وبؤر فساده.. والعفن الذى يسرى فى عروقه حتى النخاع.. حتى نصحوا ونستيقظ من سباتنا قبل أن يفوت الأوان.. إن لم يكن قد فات وأفلت من بين أيدينا فى غفلة منا!

عزت السعدنى

القاهرة فى مايو ١٩٩٥



١

حكاية بنت أسمها هيام

* لا تسألونى أين قابلتها.. ولا متى.. ولا كيف؟.. فقد وعدتها ألا أقول.. وألا أبوح بأكثر ما سمحت فى دموعها التى أغرقت مشاعرى فى بحر من الحزن.. وبقدر ما طاوعتها الكلمات المغلفة بالألم.. وهى تتكلم باكية وتبكى متكلمة.. وأنا أمامها صامت منصت أيما إنصات.. كأننى راهب بوذى جالس فى محرابه عند أعلى نقطة فى جبال التبت.

وحكايتها لم تخطر على خيال بشر.. ولا تصور كاتب أن يكتب فصولها الدامية، حتى لا يتهمونه بالإغراق فى بحور الخيال والسير فى الهواء وليس على حصى الطريق.. حتى أنا.. و أنا صامت جالس كراهب بوذى لم أتخيل للحظة واحدة أن أسمع ما سمعت فى هذه الدنيا التى يغلب شرارها خيارها.. وينتصر الحقد على طول الخط ويعلو شأن الكراهية التى تغندرت وتلونت بالبودرة والأحمر وأصبح لها نصيب

من حظ العوالم.. وينصب الظلم والقهر والحرمان سرادقات العزاء فى صدور البشر!

فى هذا الزمن الردئ الذى يعيش فيه الناس كالأيتام على موائد اللئام.. كأن لابد وأن تولد صاحبة هذه المأساة.. فالمناخ والأرض والبشر.. كلها شراع فى مركب الحزن التى ركبته أو شاء قدرها أن تركبه هذه الباكية المنتحبة أمامى ومن ورائى وفوق وسادتها طول الليل كما قالت لى وهى تحكى حكايتها مع هذا الزمان الذى بالظلم نعيشه وبالرحمة نعيشه وبالحب نعيشه وبالبغض نعيشه. فالدنيا قدرنا.. والأرض معاشنا.. والخلق إخواننا وأهلنا وجيراننا وأحبابنا وأعداؤنا..

لندعها تحكى.. وكلنا من حولها لمنصتون..

قالت: أنت خارج الغابة تعرف شكلها وحجمها فقط.. ولكنك لو دخلتها فسوف تراها على حقيقتها!

أدركت لتوى أننى أمام إنسانة مثقفة قارئة.. فهذا هو قول الفنان العظيم جويا الذى سحر الدنيا برسومه وكلامه.. ومن قرأ جويا.. فقد قرأ وافتتن برسوم غيره من فنانى عصره أمثال رامبرانت وليوناردو دافينشى ورفاييلى..

سألتها: ماذا تعنين بالغابة فى حكايتك؟

قالت: المأساة أن الناس لا تعرف ما يجرى داخل الغابة.. وكل شئ يبدو جميلا من الخارج ولكن لو اقتربت أكثر وتسللت إلى الداخل لهالك ما رأيت ولشاب رأس شعرك لهول ما شاهدت!

قلت: تقصدين أن الأشياء فى حياتنا تبدو مثل التفاحة جميلة ناعمة زكية الرائحة.. ولكننا لا نعرف أن هناك دودة تنخر فى داخلها.. إلا إذا فتحناها!

قالت: تماما.. هذا ما أعنيه بالضبط!

قلت: من المؤكد أن الدنيا قد عضتك بناب أزرق ملعون..

نسيت أن أقول أن محدثتى فى الرابعة والعشرين من عمرها عربية الجمال.. أندلسية الملامح.. بحة الصوت.. حلوة الكلمات واللفتات.. رغم محاولاتها إخفاء كل هذا تحت عباءة من الوقار والحشمة..

قالت وهى تلف رأسها بخمار أبيض لا يظهر إلا إستدارة وجهها: أعرف أنك تريد أن تعرف لماذا أحدثك بلسان المثقفين.. فأنا لن أخرج من جلدى.. فقد تخرجت فى كلية الآداب قسم فلسفة.. وكنت الأولى على دفعتى.. وكان لى إنسان أحبه شاب تتمناه أى فتاة.. وكنا على وشك الارتباط بالزواج حتى وقعت الواقعة.. فتبخر كل شئ!

صامت ساكن فى انتظار الواقعة..

هى تحكى وتقول:

أنا اسمى هيام - والاسم من عندى حتى لا أتسبب فى مزيد من الألم لها - وأنا الأخت الثانية ولى أختان الأولى أكبر منى بعام واحد.. مثلى تماما فى كل شئ وإن كانت أكثر إمتلاء ونضوجا ونضارة.. تأخرت فى دراستها بسبب حبها للرياضة فهى عضو فى أحد الفرق النسائية الجماعية

فى ناد مشهور فى الاسكندرية ولكنها تكمل تعليمها فى كلية التجارة. . أما الصغرى فهى كالفراشة صغيرة مرحة لذيذة ضاحكة السن لا تعرف الغم أو الهم. . فى الثانوية العامة الآن. . لم تنجب أمنا غيرنا. . ثلاث زهرات جميلات باعتراف الأهل والأصدقاء وزملاء الدراسة وعيون الجيران. .

أما أمى. فإن لها الله. .

لم أكن أعرف أنه بمجرد ذكر الأمهات تنساب الدموع من مقلتى الإنسان. . تركتها لدموعها. . فالدموع تغسل وتشفى وتريح. .

قالت وبقايا دموع لم تزل فى عينيها: أمى الصابرة. . التى اكتفت فى سلم تعليمها بالإعدادية. . وكافحت معنا كفاح الأبطال حتى نقف على أقدامنا. . ليس بالعمل والبحث عن لقمة العيش. . فنحن أسرة ميسورة الحال. . والحمد لله طول عمرنا مستورين وبزيادة. . ولكن أمى كافحت بصبرها وانتظارها ومحاولتها لم جراح أسرتنا الصغيرة. . التى كانت السعادة بكل روافدها تصب عند أعتابها. . حتى وقعت الواقعة!

قلت فى نفسى دون صوت: ياساتر. . ماذا يمكن أن ينزل من كرب أو غم على أم رأس هذه الأسرة الصغيرة السعيدة بثلاث بنات فى عمر الزهور. . أو ثلاث زهرات يملأن الدنيا أريجا وبهجة وألفة ومرحا. . وأم حانية. . وأب. . نسيت أن أسألها عن أبيها. . هى نفسها لم تتكلم عنه حتى الآن. .

يبدو أنها بلماحية البنت المصرية الذكية المتفتحة قد قرأت ما يدور فى رأسى. .

قالت: أعرف أنك تتساءل.. لماذا لم أحدثك عن أبى!

قلت: تماما..

قالت: لا تذكرنى به. فهو الذى زحزح جبل المقطع بيديه.. حتى سقط فوق رؤوسنا فسحقنا سحقا!

....

....

أمامنا وضعوا كوبين من الشاى الأسود الثقيل.. حاولوا تخفيف أحماله من المرارة بإضافة مزيد من السكر.. هكذا يشربونه فى القرى رغم أنها تنورت وتدللت وأصبحت تمضغ اللبان الأمريكانى بدلا من اللبان الدكر!

تشرب رشفة طويلة من الشاى الحبر.. فى نهم.. كأنها تشرب شرابا طهورا جنزبيلا وهى تقول: موش أكثر من المرارة اللى فى قلبى!

تذوقت كوبى مشاركة لها فى قهرها.. وأنا منصت غير متعجل لألمس بيدى وبوجدانى هذه الصخرة التى اسمها الواقعة..

قالت: كما قلت لك فى البداية الغابة تبدو قبل أن تدخلها جميلة بأشجارها وطيورها وحيواناتها الجميلة وفراشاتها الملونة.. ولكن إذا دخلتها لم تجد إلا الأنياب والمخالب والقواطع والأسنان تنهش فى لحمك.. وتمص عظامك..

قلت: غابة وناسها ديابة.. على رأى الشاعر أحمد فؤاد نجم!

قالت: أكبر مصيبة ممكن أن تقابلك فى حياتك.. أن يأتى لك الشر

من أقرب الناس إليك.. وأن يطعنك فى ظهرك.. وفى صدرك.. وعينى عينك.. من لا تتصور أبدا أن يمسك بالخنجر أو السكين ويوجهها إليك.. فى الوقت الذى لابد فيه أن يكون هو الدرع والسند والحماية!

أسألها بلهفة وأنا أعرف الرد أو على الأقل أخمنه: إزاى ياست هيام؟

قالت: أقولك.. ثم بعدها أحكم بما تراه..

عدت إلى إرتداء ثياب الراهب البوذى الصامت الساكت الساكن المنصت دائما وأبداً..

قالت: عشت طفولتى كلها داخل أروقة فيلا أشبه بالقصر فى منطقة جميلة بالاسكندرية تطل على البحر.. وكان أبى يعمل بالتجارة.. وفتح الله عليه من أوسع أبوابه فأصبح لديه شركة للتصدير والاستيراد.. وتصنيع المواد الزراعية وتصدير الزهور وخاماتها إلى الدول الأوروبية، إلى جانب معرض كبير للسيارات.. وكان لدينا أكثر من ٦ سيارات من أحدث الموديلات داخل جراج الفيلا.. وكان السفرجية والطباخون والبوابون والشغالون عندنا من كل صنف ولون.. وكنا ندرس فى المدارس الأجنبية والسائق الخاص بالمرسيدس يوصلنا إلى مدارسنا ويعود بنا.. حياة كلها رفاهية ودلع وعز بلا حدود!

ثم جاء اليوم الأسود الذى عرف فيه أبى طريقه إلى الكيف.. فالعز والغنى واليسر والفلوس يجئ عليها وقت تفقد فيه قيمتها عند الإنسان، فيبحث عن متعة أكبر.. وهكذا ينحرف الإنسان عن الطريق..

جاء إلينا والدنا ذات ليلة وهو غاية فى المرح والظرف.. كان إنسانا آخر غير الذى نعرفه.. ينكت ويهزر ويداعبنا ويضحك بصوت عال بسبب وبدون سبب.. وسألناه: خير إيه يابابا.. لازم كسبت صفقة كبيرة..

قال: لا!

قلنا: أمال إيه.. بتحب جديد؟

قال: وهو أنا الاقى فين زى أمكم ولو لفيت الكرة الأرضية بحالها موش حلاقى ظفرها!

حاولنا ليلتها أن نعرف سر المرح الزائد والضحك الزيادة.. وحالة الانبساط التى عليها والدنا.. ولكننا لم ندرك ولم نتصور أن يكون السبب هو الكيف اللعين!

وهكذا استمر الحال بوالدنا.. كل ليلة يعود إلينا آخر فرفشة وآخر مزاج حتى أننا كنا نتسابق كل واحدة منا تطلب ما تريد.. هذه سيارة.. وتلك شقة على البحر عشان تتجوز فيها.. والثالثة طاقم ملابس من بلاد بره.. وأمى كردان دهب أربعة وعشرين قيراط.. وكان لا يتأخر علينا فى شئ!

ولعب الفأر فى صدر أمنا.. وراحت تضرب أخماسا فى أسداس خصوصا أن التليفونات لم تسكت فى البيت: روحى ياست هانم شوفى جوزك بيسهر عند مين لوش الفجر!

وبدأنا نتحرى.. ونبحث حتى عرفنا أن أبانا يسهر كل ليلة عند أحد أصدقاء السوء الذى نسمع عنهم..

كانوا يشربون أنفاسا زرقاء من الحشيش فى البداية انتهت إلى المدعوق الذى اسمه الهيروين!

وأنت بالطبع تعرف ماذا يمكن أن يصنعه الهيروين بالإنسان؟

قلت: أعرف..

وعلى طريقة الفلاش باك فى السينما.. يعنى الرجوع إلى الخلف أو الخروج من دائرة أحداث الفيلم المثير إلى دائرة العلم والمعرفة.. رحت أقلب فى كتاب «فى بيتنا مدمن» للأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير «الأهرام» وهو واحد من أخطر الكتب التى كتبت عن الإدمان.. أردت أن أعرف ماذا يمكن أن يصنع الهيروين وغيره فى الإنسان جسدا ونفسا وروحا؟

ورحت أقرأ لأعرف.. وتعرفون معى:

أنواع المخدرات هى:

١ ـ مستحضرات الأفيون: وهى مستخرجة من البذور غير الناضجة لنبات الخشخاش Papaver somniferum وتعتبر أقدم المخدرات التى استعملها الإنسان. وكان الأفيون المذاب فى محلول كحولى يسمى «الترياق الشافى»، وكان هو المخدر الوحيد المتاح لقرون عديدة، وذلك من أجل تخفيف الآلام والأعراض العامة لغالبية الأمراض. ومنذ مئات السنين، استخرج كيميائى ألمانى المورفين من الأفيون ـ وقالوا إنه الكيميائى سيجان المرافق لجيش نابليون إلى مصر ـ وفى نفس الوقت تقريبا، تم اختراع الإبرة والمحقنة «السرنجة»، حتى يمكن إطلاق المخدر

مباشرة فى مجرى الدم. ويصل المورفين فى نحو دقيقة إلى مواقع معينة فى المخ، محدثا المتعة، ومزيلا للألم، وبعد بضع سنوات أخرى، قام كيميائى آخر بتعديل المورفين لإنتاج الهيروين.

والهيروين علميا بمثابة مورفين سريع المفعول يتجه إلى المخ بشكل أسرع من مركبه الأصلى، إلا أن مفعوله يستمر لفترة قصيرة.. وفى الشرق الأقصى، يتم حرق هذا المخدر ويستنشق دخانه، وهو ما يعرف باسم «مطاردة التنين».

ويعتبر مدمنو الهيروين من حاملى الالتهاب الكبدى الفيروسى، ولدى كثيرين منهم فيروسات أخرى مثل الهربس، والفيروسات المشببة للورم الخلوى ومرض نقص المناعة المكتسبة «الأيدز» كما أنهم غالبا ما يصابون بالجراثيم التى تحتمل أن تجلب العدوى لصمامات القلب والأغشية المبطنة له، وجهاز المناعة لديهم قاصر. أما النساء المدمنات فيضعن أطفالا أقل وزنا من المعدل الطبيعى، ويصبن بأنواع خطيرة من العدوى وتكون نسبة الوفيات بينهن مرتفعة.

. وهناك نحو مليون مدمن هيروين فى الولايات المتحدة، ومعظمهم من سن السادسة عشرة إلى الثلاثين، وهم يحتاجون إلى نحو عشرين طنا من الهيروين سنويا، وينفق كل واحد منهم مائة دولار أمريكى يوميا من أجل هذه العادة.

يعنى أن الهيروين يصرفون عليه فى أمريكا وحدها كل يوم ١٠٠ مليون دولار.. يعنى أكثر من ٣٣٦ مليون جنيه مصرى كل طلعة شمس!

٢ ـ أما الكوكايين، فإنه أكثر عقاقير الإدمان خطرا. . وهو يستخرج من ورقة شجيرة الكوكا، وهى شجيرة تزرع بأمريكا الجنوبية فى بيرو وبوليفيا وكولومبيا. وزراعة شجيرة الكوكا مشروعة فى بيرو وبوليفيا وكولومبيا بغية توفير أوراقها للملايين من السكان الهنود فى منطقة الأنديز. . وهم يستهلكوم ما بين ٣٠ إلى ٥٠ جراما يوميا من الأوراق.

والكوكايين سواء استخدم بالتنشق، أو الحقن فى شكل الكوكايين المذاب، أو بتدخينه كمسحوق منقى «الكراك»، يعتبر من أشد المخدرات خطورة، ويحدث امتصاصه فى مجرى الدم، أثراً منبها عظيما فى المخ بإفرازه كمية متراكمة من «عصارة المخ» الفعالة المعروفة باسم توربيننفرين، وهى قادرة على إثارة شعور كبير بالنشوة، وحالات اهتياج، والمبالغة فى تقدير قدرات المتعاطى البدنية والعقلية، فيتلاشى التعب ويتحسن الصفاء الذهنى. وترتبط هذه الآثار النفسية بزيادة فى معدلات ضربات القلب والتنفس وضغط الدم، وفقدان الشهية. وخلال فترة تتراوح مابين ٣٠ و ٦٠ دقيقة يعقب حالة الاهتياج والنشوة شعور بالهبوط البدنى والنفسى، ويحل الاكتئاب والكدر محل النشاط، ويعقب النشوة التوتر والتململ والقلق الشديد.

. . . .

. . . .

مازلنا نجلس على كراسى متقابلة. . وقد فرغت أكواب الشاى إلا من بقايا سوداء كالحة استقرت فى القاع.

قلت لها: الهيروين ياعزيزتى اسمه الإدمان من أول مرة. . من يذوقه

لا يتركه أبدا. . لأنه يتسبب فى تدمير أجزاء معينة من المخ. . ولافكاك منه ولا مهرب. .

قالت: هكذا أدمن والدنا هذا المخدر اللعين. . ولم نعرف إلا بعد فوات الأوان. . وحتى لو عرفنا. . ماذا بيدنا لنفعله. .

قلت: وبدأ والدكم يهمل فى عمله وفى تجارته وينفق كل مكاسبه على مزاجه. .

قالت: ياريت. . لقد كان يستنشق تذاكر الهيروين. . كل ليلة بما قيمته مائة جنيه. . ثم زادت الجرعة. . حتى وصلت إلى ألف جنيه فى اليوم!

أسألها: من أين؟

قالت: سأقول لك من الآخر حتى أوفر عليك الوقت والجهد والتخيل. . باع الشركة والسيارات ومكتب الاستيراد والتصدير. . باع كل شئ فى خلال ثلاث سنوات لا أكثر. .

ثم جاء اليوم الذى رهن فيه الفيلا التى نسكنها مقابل شهر واحد من الشم. . وأخذها منا تاجر مخدرات معروف فى الاسكندرية لم يسقط أبدا فى أيدى الشرطة. . صبيانه فقط يذهبون خلف الأسوار وهو باق فى مكانه يدمر من حوله ولا أحد يطوله أو ينال منه. .

ووجدنا أنفسنا بين يوم وليلة فى الشارع. .

تنظر إلى بنظرات من يتعلق بقشة وهو يغرق وتقول: أتعرف ياسيدى معنى ألا يكون لك بيت. . دار سكن. . مأوى. . لقد عدنا أنا وأخوتى

عصر أحد الأيام من الجامعة والمدرسة.. فلم نجد لنا مكانا نستظل تحت سقفه.. أصبحنا بلا دار! منعونا من الدخول.. بعد أن باع أبى الفيلا بمحتوياتها.. ولو كنا فيها لكان باعنا نحن أيضا!

سألنا عن أمنا وعرفنا من الجيران أنها عند أخ لها يعنى عند خالنا.. وذهبنا إلى هناك.. ورحنا نحتضن بعضنا ونحن نسبح فى بحر من الدموع!

....

....

نهر الدموع.. لم يجف بعد فى عيون هيام..

وأنا مازلت جالسا قبالتها فوق كرسى خشبى موجع.. كأننى نفس الراهب البوذى ساكن ساكت منصت لايتكلم..

هى تروى مأساتها مع الأيام السود:

وباعت أمى مصاغها وذهبها وكذلك فعلنا وانتقلنا إلى شقة صغيرة حجرتان ضيقتان فى حى بسيط ولكنه مملوء بالناس الطيبين.. وبالحب وبالونس وبالخير الكثير..

تاه منا والدنا.. لم نعرف إلى أين ذهب.. وربما لأننا لم نكن نريد أن نعرف.. قلنا لأنفسنا.. ليذهب إلى حال سبيله.. ويتركنا فى حالنا..

ولكنه لم يتركنا..

جاءنا ذات ليلة محمولا على أكتاف رجال طيبين من أهل الحى.. كان تقريبا فاقدا للوعي وللنطق.. قالوا لنا فى المستشفى الذى نقلناه إليه أنه شرب جرعة زيادة من المخدر.. وأرادت مشيئة الله أن ينجو ويقف على قدميه من جديد.. وحملناه إلى شقتنا الصغيرة.. وقالت أمى الصابرة: نلم لحمنا يابنات.. ده أبوكم والضفر مايطلعش من اللحم!

وياليته طلع..

أسألها: لماذا؟

قالت فى أسى: لأنه تحول إلى وحش كاسر.. أصبح مثل النمر الجريح.. لا يعرف كيف يصطاد فاستدار يأكل أولاده!

نسيت أن أقول لك.. أننى قبلت وظيفة بسيطة فى مكتب محام كان صديقا لوالدى.. ونسيت أن أقول لك أن خطيبى أو حبيبى تركنى بعد مأساة أبى.. وأن أختى تركت الرياضة وهجرت فريقها وراحت تعطى دروسا خصوصية لأولاد الجيران.. حتى نعيش..

ولكن والدنا الذى استقر معنا.. بلا عمل.. وبلا مورد.. والذى لم يترك الإدمان.. أو أن الإدمان لم يتركه.. راح يطالبنا بثمن المخدر وإذا لم نفعل يضربنا.. ويضرب أمى حتى يسيل دمها.. وهى دامعة صابرة لا تتكلم!

كانت نوبات هياجه إذا غاب عنه الصنف أو تأخر ساعات معدودة يسمع بها المارة فى ميدان الرمل..

باع كل شئ فى شقتنا الصغيرة.. الراديو والتليفزيون والغسالة

الصغيرة.. كان ينتهز فرصة عدم و
الأثاث.. ويبيعه مقابل شمة هيروين..

وأصبحنا على البلاطة.. وهو تعبير لم أكن أدرك كنهه حتى جربناه..

وفكرنا أن نبلغ عنه الشرطة.. كما نصحنا الجيران.. ولكننا لم نفعل.. منعتنا أمنا الصابرة.. وجاء يوم وجدناه يحمل حقيبة جلدية دخل بها حجرة النوم وأغلق عليه الباب من الداخل.. ومن خرم المفتاح شاهدته يعبئ مسحوقا فى تذاكر صغيرة.. وعرفت بالخبرة أنها تذاكر هيروين.. وهكذا تحول أبى من مدمن إلى تاجر صغير لحساب تاجر كبير من الأفاعى التى لا يطولها أحد..

وسألناه: ليه يابابا.. لعلمك مازلنا نناديه بابا..

قال: عشان بس أقدر أصرف على الصنف..

وأصبح الزبائن يأتون جهارا نهارا إلى شقتنا يسألون على الصنف.. وأصبحت سيرتنا على كل لسان فى الحتة!

ولم يكتف بهذا..

ولكنه حول شقتنا إلى مكان لمتعة المدمنين.. كان يستقبل المدمنين أشكالا وألوانا ومن كل الطبقات.. بينهم الطبيب والمهندس والضابط والمحامى وبائع الفاكهة ومعلم الكرشة ولحمة الراس.. وكان يجبرنا على تقديم الشاى والحاجات الساقعة والبيرة لهم!

وبدأ الذئاب من ضيوفه وزبائنه ينظرون إلينا نظرات شرهة وجائعة..

وفى إحدى الليالى وقعت الواقعة.. هجم أحدهم وهو فى غير وعية على أختى فى حجرتها التى اقتحمها عليها ومزق ملابسها.. وعندما صرخت وخرجت إلى الصالة وجدت أبى جالسا فى سكون دون أن يتحرك أو يمسك بالرجل ويبعده عن شرفه ولحمه.!

وفى الصباح قررنا أن نترك البيت له.. ونذهب لنعيش عند خالى.. ولكنه بكى وقال: أنها غلطة لن تتكرر!

وصدقناه.. أو بتعبير أدق صدقته أمى..

حتى جاءت أسود ليلة فى حياتى.. كانت أمى تبيت عند خالى لتقديم واجب العزاء وكنا أنا وأختى الكبرى والصغرى وحدنا مع أبى.. وجاء زبائنه فى تلك الليلة وتركناهم يلهون ويشربون ويتضاحكون.. وأغلقنا علينا باب حجرتنا وحاولنا أن ننام.. وكأنه كابوس أو حالة مابين اليقظة والنوم.. فوجئنا بثلاثة رجال يقتحمون علينا حجرتنا وأمسك كل واحد منهم بواحدة منا.. وراح يحاول نهش لحمها وعرضها وشرفها.. ونحن نصرخ ونقاوم.. وننادى على والدنا أن ينقذنا.. ولكننا اكتشفنا بعد فوات الأوان.. أنه ترك الشقة كلها ونزل وتركنا مع الزبائن الثلاثة بعد أن باعنا لهم.. باع بناته.. شرفه.. لحمه.. عرضه.. مقابل ماذا؟.. أنا أسألك أنت؟

تصرخ فى وجهى.. وأنا لاأعرف بماذا أجيب!

قلت لها مهدئا: المدمن هنا كما يقول كل العلماء فى الكتب التى

قرأتها يبيع كل شئ وأى شئ من أجل المخدر.. وهو لا يدرى ماذا يفعل!

لم أسألها.. ماذا فعلت هى وأختاها مع الذئاب.. ولم أجرؤ أن أسألها وهى غارقة فى أحزانها وقد جفت الدموع فى مقلتيها.. كل الدموع جفت وتحجرت!

....

....

تركتها حتى توقفت عجلة انفعالاتها تماما..

آخر فصل فى حكاية هيام..

بلسانها تتحدث دون دموع هذه المرة..

قالت وقد تجمدت قسمات وجهها وهى تنظر عبر النافذة إلى الأشجار البعيدة.. تتذكر ماجرى وما كان: لقد قررت فى هذه الليلة أن أنتقم ممن؟.. من أبى..

قررت أنه لاخلاص لنا.. إلا أن يذهب ولايعود أبدا.. والمكان الوحيد الذى يذهب إليه المرء ولايعود هو الموت.. فقررت أن يذهب ليه!

تركت شقيقتاى المنزل ومعهما أمى بالطبع.. ولكنى رفضت الذهاب معهم.. وسر أبى كثيرا بابنته الظريفة التى تطاوعه ولاتلاوعه وقررت أن تعيش معه تحت سقف واحد..

وفى الليل.. بعد أن شرب جرعته المعتادة من الهيروين اللعين وراح فى نشوة المخدر.. وغاب عن وعيه تماما.. وضعت مخدة السرير فوق رأسه ورحت أضغط على أنفاسه وأنا فى نشوة مابعدها نشوة حتى سكن وهمد وراح إلى حيث لايرجع أحدا

أنا لست نادمة.. فقد قطعت رأس الأفعى!

....

....

ران صمت.. كصمت القبور.. شعرت خلاله أن نصف مابقى من شعر رأسى قد شاب..

• تهزنى بسؤال: الجميلة المليحة المتعلمة: هل أنا مخطئة.. هل أنا حقا مجرمة؟

لم أجد ما أقوله لها.. كل مافعلته أننى لملمت أوراقى وحالى وماتبعثر من مشاعرى وقبلت رأسها وقلت: لك الله يا ابنتى!

ترى هل أخطأت هيام؟

هل أجد عندكم الجواب؟ □



٢

اقطعوا رأس الافعى

* لم أكن أتصور أن يكون لهيام صاحبة المأساة التى باحت بقصتها الدامية هنا فى نفس المكان.. هذا الحصاد الوفير من القلوب الدافئة التى امتدت إليها بفروع مضيئة ظليلة تحاول أن تقول لها نحن معك.. صحيح أنك قطعت رأس الأفعى.. والأفعى هنا ليست غريبة عنك ولكنه أبوك الذى أتى بك إلى هذه الدنيا ثم رماك راضيا أم مرغما إلى النار والفسق والفجور.. ولكن هذا كان قدرك وكان قرارك أنت لكى تنقذى أمك وإخواتك والدنيا كلها من شروره وآثامه وياله من شر وياله من إثم.

ولقد انقسم القوم فينا بين مرحب بما فعلته هيام وبين حانق وغاضب لما جنته يداها.

لقد لوثت يدها بدماء أقرب الناس إليها.. ولكيلا ننسى فقد قطعت

هيام اليد التى دمرتها ودمرت اسرتها معها. . وقبل أن نفتح ملف المؤيدين والمعارضين من خلال رسائلهم ومكالماتهم التليفونية. . اسمحوا لى أن أضع مأساة الإدمان فى مصر بالذات أمام أعين الجميع حتى نرى الحجم الحقيقى لهذه المأساة المروعة وكيف يجرى الآن تدمير جيل مصرى بأكمله من الداخلين عبر نفق مظلم حزين ومؤلم اسمه الإدمان.

هل تعرفون حجم تجارة المخدرات فى العالم كله الآن؟

الجواب من تقارير لمنظمة اليونسكو وللمنظمة العالمية لمكافحة المخدرات، كما قرأته فى ملفاتها فى مقرها الدائم فى واشنطن العاصمة الأمريكية أن حجم تجارة المخدرات وصل إلى ٢٠٠ مليار دولار فى كل سنة يعنى «٢٠٠ ألف مليون دولار». .

وتسألون: ما هو نصيب مصر من هذه الأرقام الخرافية؟

والجواب من نفس المصادر العالمية ومن واقع تقارير أجهزة مكافحة المخدرات فى مصر: فى حدود أربعة مليارات دولار!

وتسألون: كم عدد الذين أدمنوا من سكان العالم؟

والجواب حسب تقارير الخبراء:

هو ٧٪ من سكان العالم يتعاطون المخدرات. . وإذا كان عدد سكان العالم الآن فى حدود ٦ مليارات إنسان فإننا سوف نكتشف أن عدد المدمنين فى العالم يتجاوز الـ ٤٢٠ مليون إنسان!!

والآن تعالوا نفتح معا ملف من تحركوا وتكلموا وقالوا كلاما فى

حكاية هيام وإن كان هذا فى الحقيقة ليس اسمها لأننى لن أبوح بأكثر مما سمحت:

* * لعل أغرب رسالة وصلتنى من باحث اجتماعى ـ عندى اسمه ـ يقول فيها:

* * أنه يعانى من نفس الموقف الذى عاشته هيام وهو يتساءل متى يتوقف أحب الناس إلينا عن الإدمان وهل نكون حقا مخطئين إذا فعلنا مافعلته هيام؟!

* * المهندس سمير البشارى ـ بالمعاش يقول:

إن العمل الذى قمت به ياهيام كمن يدافع عن وطنه وعن شرفه ولا خطأ ولا خطيئة فيما فعلت.

* * جمال طه يقول:

لقد عالجت ياهيام الخطأ بالخطأ.. ولقد أخطأت فى حق نفسك وحق وطنك وكان لابد أن تبلغى الشرطة ولا تقومى بالقصاص بنفسك، لقد ضيعت نفسك وضيعت أمك وأخوتك معك.

* * هناء الشنوانى ـ ليسانس لغة عربية كلية الآداب:

أنا أقف مع هيام وإن كنت لا أقر بالقتل وإلا فإننا إذا فعلنا ما فعلته هيام أصبحنا كأننا نعيش فى غابة.

* * حسن محمد ـ طالب فى كلية الخدمة الاجتماعية كتب يقول:

ما فعلته هذه الفتاة شئ طبيعى وربنا يرحمها ويغفر لها ولقد دافعت عن عرضها وشرفها.

* * سعيد أحمد عبد الحفيظ ـ طالب فى كلية التجارة: لقد أخذت هيام بثأرها ممن حاول أن يبيعها فى سوق النخاسة.. وأرجو أن تعتبرنى هيام صديقا لها ولو بالمراسلة.

* * لواء متقاعد ـ محمد محمد صبرى: أؤيدك تماما ياهيام فقد أحل الله قتل من يريد بنا الإذاء وإذا مات الإنسان وهو يدافع عن شرفه فهو شهيد وإذا قتل من اعتدى عليه فهو برئ.

* * سمير أحمد ـ مدير العلاقات العامة بشركة القناة: لقد أجرمت فى حق نفسها وفى حق مجتمعها وفى حق أمها وأخواتها فهى مخطئة ومجرمة.

* * عدنان أسعد:

هى قاتلة ومذنبة وتستحق الحد بالإعدام.

* * سمير محمد عزيز ـ مؤلف وممثل:

لقد أرادت هذه الفتاة أن تكون مثل شخصية أوديب وأن قتل البنت لأبيها شئ مريع وهى فى الحقيقة لم تقطع رأس الأفعى ولكن ذيلها فقط!.

* * ثلاث تلميذات ـ بمدرسة شربين الإعدادية بالمنصورة كتبن رسالة واحدة يقلن فيها:

لقد كونا جمعية لأصدقاء هيام ولقد قررنا أن نذهب إليها ونقدم لها الشيكولاته.

ونقول لها نحن معك فى دفاعك عن شرفك وعرضك ولكن دون سفك دماء!

. . . .

. . . .

ليس هذا هو كل ما وصلنى من رسائل ومن مكالمات ولكنه بعض منه وأنا لاأريد هنا أن أقول لهيام حسنا فعلت ولا أريد أن أقول لها قد أخطأت فى حق أبيك حتى لو كان يحمل لك الشر والدمار والخطيئة ولكننى أشعر أن هذه الفتاة لم ترتكب ما ارتكبته إلا بعد أن عانت وتعبت وراح منها العقل وزاغ منها القلب ولم تجد معينا أو أنيسا أو رفيقا إلا أن تضحى هى لكى تنقذ شتات أسرتها التى تمزقت شر ممزق.

وفى تصورى أنكم تريدون أن تعرفوا معى كيف سار الإنسان المصرى مشوار حياته مع الإدمان. . ومتى عرف هذا الإنسان صانع الحضارة التى أضاءت الدنيا نورا وتنويرا طريقه إلى عالم الظلام والإدمان.

يحضرنى هنا ما قاله هوميروس الشاعر الاغريقى قبل نحو تسعة قرون من ميلاد السيد المسيح فى أشعاره فى الإلياذة الشهيرة.

أن الأميرة اليونانية هيلين طروادة كانت تقدم شرابا اسمه شراب «السلوان» إلى الأمير اليونانى فلى ماكوس لكى تنسيه همومه لخسارته الحرب أمام هانيبال العظيم وأن هيلين اليونانية الجميلة قد حصلت على

هذا الشراب الذى يذهب بهموم الدنيا من أميرة مصرية اسمها تون وما جاء فى نص أشعار هوميروس:

«امرأة من مصر.. من الأرض الطيبة الخيرة التى لا تتوقف عن العطاء والتى تمنح بسخاء عشبا أخضر قليل منه فيه الشفاء وكثير منه فيه الهلاك.»

وأذكر أننى قرأت للمؤرخ اليونانى الذى عاش فى مصر وبالذات فى الاسكندرية واسمه تيودور الصقلى أنه قال:

لقد كانت نساء طيبة يشربن شراب السلوان الذى يذهب بالحزن والغضب.

وشراب السلوان هنا لم يكن مستخلصا من الحشيش ولكنه كان مستخلصا من الأفيون الذى يبدو أنه كان معروفا فى مصر قبل عصر هيلين طروادة.

وفى كتابه العظيم الموثق (جريمة تعاطى المخدرات فى القانون المقارن) يقول الدكتور محمد فتحى عيد تحت عنوان التطور التاريخى لمشكلة المخدرات فى مصر: لقد عرف المصريون القدماء نبات الخشخاش الذى يصنع منه الأفيون فى وقت مبكر جدا هذا ما جاء فى كتب المؤرخ صابر جبرا وكان دليله ما يلى:

١ ـ إنه عند اكتشاف إحدى المقابر الفرعونية للأسرة الثامنة عشرة عثر بداخلها على مرهم زيتى يحتوى على المورفين.

٢ ـ عند التنقيب عن الآثار فى واى الملوك عثر الأثريون على قرصين ذهبيين على شكل كبسولة نبات الخشخاش.

٣ ـ عثروا على زهور وأوراق نبات الخشخاش حول مومياء فرعونية من الأسرة الحادية والعشرين وذلك فى أكاليل الزهور.

٤ ـ إن المصريين كانوا يسمون نبات الخشخاش باسم نبات (شبن) كما أن الأفيون قد ذكر ٢٢ مرة فى أوراق البردى.

٥ ـ كان المصريون يستخدمون الأفيون أساسا فى علاج أمراض العيون وكمراهم لعلاج أمراض الجسم، بل إن مصطلح (O.P.I.U.M.) قد استخدمه المصريون فى العصرين اليونانى والقبطى وقد أخذه عنهم الغرب.

٦ ـ فى كتاب مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة لمؤلفه أدون هرمن:

إن المصريين كانوا يستخدمون نبات «شبن» أو الخشخاش كدواء لتهدئة صراخ الأطفال.

٧ ـ أما المؤرخ كلودواجالين الذى جاء فى القرن الثانى بعد الميلاد فإنه يقول:

إن الإله المصرى موت هو الذى علم الجنس البشرى كيف يستمتع بالأفيون.

٨ ـ عثر الأثريون فى مقبرة المهندس شا الذى عاصر الملك أمنحتب الثالى على إناء بداخله ريوت دخل فى صناعتها الأفيون.

٩ ـ فى كتابه لمحة عامة إلى مصر يقول كلوت بك:

إن الحيثيين ـ الذين كانت لهم حروب طويلة مع رمسيس الثانى انتهت بأول معاهدة سلام فى التاريخ بين مصر وبينهم ـ كانوا يشربون الحشيش فى حفلاتهم الدينية.

١٠ ـ يقول المقريزى المؤرخ المصرى العظيم الذى عاش فى بلدنا قبل نحو ستة قرون:

إن نبات القنب الذى يستخدج منه الحشيش معروف فى مصر منذ القدم وأن المصريين قد استخدموه فى صناعة الحبال وإنهم لم يستخدموه كمخدر إلا فى القرن السابع الهجرى بعد أن علمتهم الشعوب الأخرى التى جربت الحشيش واكتشفت أنه يبعث على السعادة والسرور!!

١١ ـ وفى كتابه العظيم كارثة الإدمان يتحدث مؤلفه الأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام عن تاريخ المصريين مع المخدرات بقوله:

إنه فى عصر المماليك ومع تفشى أنواع من الظلم والخلل الاجتماعى انتشر الحشيش فى بر مصر بوصفه باعثا على طرد اليأس والشعور بأوقات سعيدة طيبة مع أنفاس زرقاء من الحشيش بل راجت زراعته فى مصر واشتهرت القاهرة بالذات بزراعته فى حى الظاهر والفجالة وباب اللوق.

١٢ ـ أما المؤرخ العربى ابن البيطار فقد وصف الحشيش المصرى بأنه مسكر جدا إذا تناول منه المرء قدر درهم أو درهمين، وأن الإفراط فى تعاطيه يؤدى إلى الجنون وقد يؤدى إلى الموت.

١٣ ـ ويقول ابن إياس المؤرخ المصرى المشهور فى كتابه بدائع الزهور:

إن المماليك قد اعترفوا ووافقوا على زراعة الحشيش وبيعه وتعاطيه واكتفوا بفرض ضريبة عليه لملء خزينة الدولة بالمال.. وأن الظاهر بيبرس البطل العظيم قاهر المغول والذى تزوج بأول أميرة مغولية دخلت القاهرة ألغى الضريبة المفروضة على الحشيش عندما تبين له أضراره على أهل مصر واكتفى بمصادرة المضبوطات من الحشيش لمن يضبط وهو يبيعه أو يتعاطاه!

١٤ ـ وفى عصر العثمانيين من عام ١٥١٧ إلى عام ١٨٠٥ ميلادية شاع استخدام الحشيش بين الناس بعد التدهور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى الذى ساد مصر خلال أيامهم حتى أن نابليون بونابرت عندما دخل إلى مصر مع حملته الفرنسية الشهيرة فوجئ بانتشار الحشيش وحتى لا يدمنه جنوده أصدر قرارا فى عام ١٨٠٠ ميلادية بمنع تعاطى الحشيش فى مصر وكانت العقوبة أيامها ثلاثة أشهر سجنا ومصادرة الحشيش المضبوط.

١٥ ـ ولكن المؤرخين يقولون إنه عندما جاء محمد على مؤسس مصر الحديثة الذى حكم مصر لمدة ٤٣ عاما طالب بالتوسع فى زراعة القنب لصناعة الحبال من نباته ليبنى أكبر أسطول حربى لمصر ولكنه عندما علم أن تعاطى الحشيش قد زاد بين العاملين فى المصانع الحربية باستخدام بذور القنب أصدر أوامره إلى جميع المديريات فى مصر بمنع زراعته إلا أن الفلاحين لم يمتنعوا عن زراعته وكانوا يزرعونه خلسة.

١٦ ـ قرأت فى كتاب بناء دولة مصر الذى كتبه الدكتور محمد فؤاد شكرى وعبد المقصود العنانى وسيد محمد خليل: أن محمد على وهو

تاجر دخان قديم قد توسع فى زراعة القنب وتوسع أيضا فى زراعة الخشخاش عندما علم من مستشاريه مقدار الشهرة الرائعة التى حققها أفيون طيبة فى قديم الزمان فاستدعى خبراء من تركيا لزراعة الخشخاش فى مصر وكان الباشا محمد على يتولى تصدير الأفيون الناتج من الخشخاش إلى الخارج وخاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية والصين لاستخدامه فى الأغراض العلمية فقط.

أما بذور الخشخاش فقد كان يتم عصرها فى المصانع لإنتاج زيت المصابيح.

١٧ ـ ويقول الأستاذ إبراهيم نافع فى كتابه الشامل الجامع كارثة الإدمان:

إن تقارير مبعوثى الدول الأجنبية فى مصر كانت تقول إن الأفيون المصرى يعتبر من أهم صادرات مصر حتى أنه فى عام ١٨٣٤ صدرت مصر إلى الخارج أربعين أوقية أفيون إلا أن المصريين رغم هذا الإنتاج الوفير ورخص ثمنه لم يقبلوا على تعاطى الأفيون.

١٨ ـ يقول كلوت بك فى كتابه لمحة عامة إلى مصر: لقد انتشر تعاطى الحشيش فى مصر وراح الخلق يأكلونه ويشربونه ويدخنونه فى المقاهى وفى حوانيت خاصة أطلقوا عليها اسم المحاشش!

١٩ ـ أما اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فيقول فى مذكراته:

إن مصر لم تعرف أول مكافحة حقيقية ورسمية للمخدرات إلا فى

عام ١٨٧٩ عندما صدر الأمر العالى بمنع زراعة الحشيش فى مصر ومنع استيراده وقال اللورد كرومر فى تقريره عن الحالة العامة فى مصر أيامها:

«إن الحشيش لايزال ينزل ويلاته بالقطر المصرى وأن ١٨٪ من الذين دخلوا مستشفى الأمراض العقلية سنة ١٩٠٣ كان جنونهم بسبب تعاطى الحشيش!

....

....

هذه هى سيرة الحشيش والأفيون مع المصريين أو سيرة المصريين مع الحشيش والأفيون وقد تسألون متى دخل أخطر أنواع المخدرات على الإطلاق وهما الكوكايين والهيروين إلى مصر؟

الجواب نجده فى كتاب الدكتور محمد فتحى عيد (جريمة تعاطى المخدرات فى القانون المقارن):

«إن مصر لم تعرف من أصناف المخدرات إلا الحشيش والأفيون حتى ١٩١٤ ومع قرب نهاية الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٩ تمكن يونانى من إدخال الكوكايين إلى مصر وقد استخدمه أبناء الذوات ثم انتشر إلى الطبقات المتوسطة والشعبية».

وقد بدأ بيع الكوكايين فى مصر منذ عام ١٩١٩ ثم تلاه بيع الهيروين وأخذ التجار يبيعونه بثمن بخس حتى أدمنه الناس وأصبح له ضحايا عديدون.

أما التقرير الرسمى لمكتب مكافحة المخدرات فى عام ١٩٣٠ فإنه يقول:

إن الهيروين قد انتشر فى البلاد فى أواخر عام ١٩٢٨ وقد قدر عدد مدمنى الهيروين فى مصر بنصف مليون مدمن من بين ١٤ مليون إنسان هم عدد سكان مصر أيامها وكان من أهم أسباب تفاقم الإدمان الثراء المفاجئ الذى طرأ على البلاد فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بسبب ارتفاع أسعار القطن..

ولكن: كيف واجهت مصر هذه الحملة الشرسة ضد أبناء الشعب المصرى؟

١ ـ تم إنشاء أول مكتب لمكافحة المواد المخدرة وهو أول جهاز متخصص فى مكافحة المخدرات فى العالم ـ كما يقول الدكتور عبد الوهاب محمود فى كتابه المواد المخدرة أمس واليوم والذى صدر عام ١٩٤٧ ـ وكان هدف هذا المكتب مقاومة شحنات الحشيش التى كانت تهرب إلى مصر من بلاد الشام.

لقد قام رجل إنجليزى برئاسة هذا المكتب اسمه توماس راسل باشا وهو رجل إنجليزى صارم منضبط غاية الانضباط قام بفرض رقابة على مراكز إنتاج السموم فى أوروبا ومنع دخولها إلى البلاد فاستبدله الناس بالأفيون وخصوصا أبناء الطبقات الفقيرة.

حتى أنه فى عام ١٩٣٠ لم تتعد كمية الكوكايين التى تم ضبطها كيلو جراما واحدا.

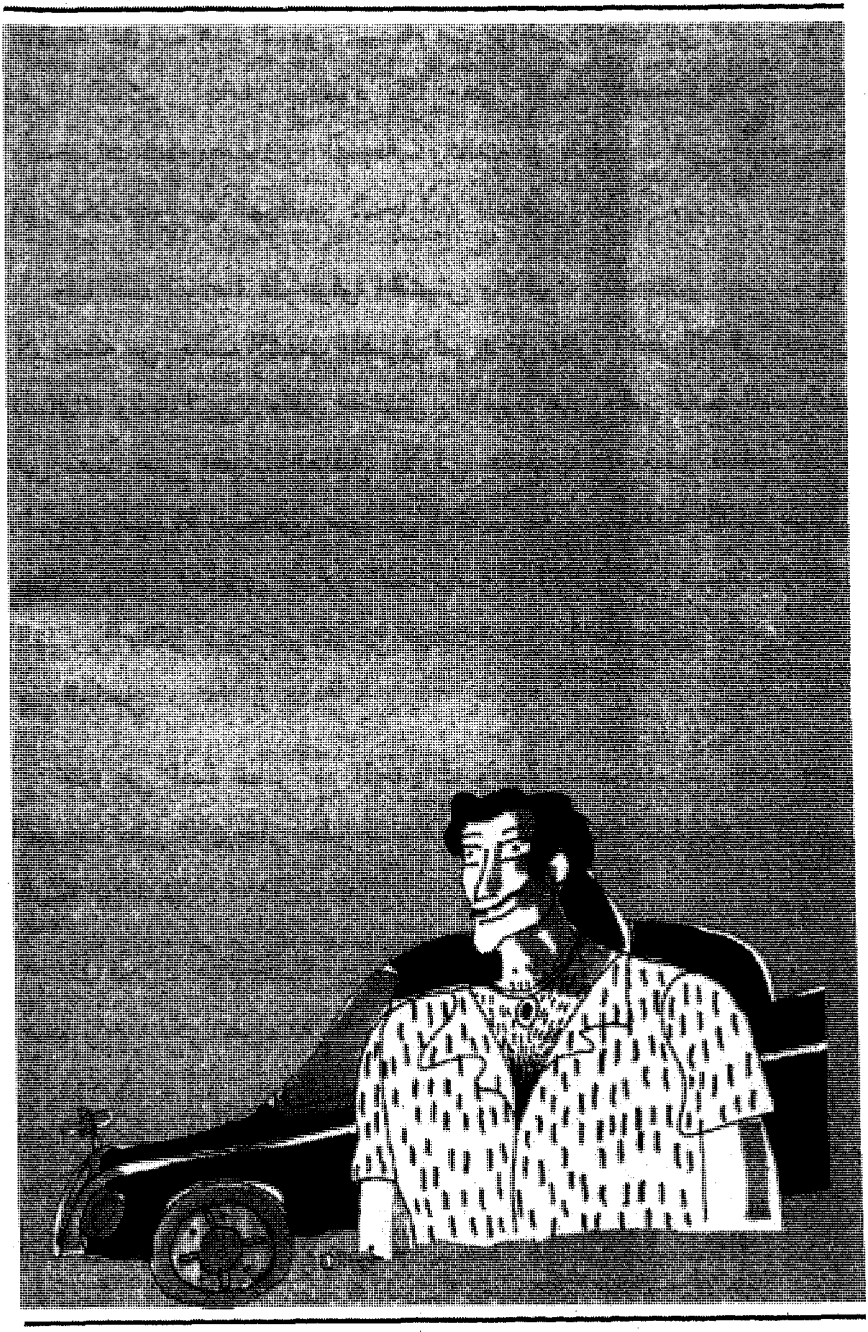
ولكن حدثت المفاجأة وتراجع الكوكايين والهيروين وزاد تدفق الحشيش والأفيون خلال الحرب العالمية الثانية بسبب عدم توافر السفن

اللازمة لتهريب هذه السموم البيضاء من مواطن إنتاجها إلى مصر ـ كما يقول الدكتور حامد محمود بك مدير أقسام الصحة الاجتماعية والمخدرات الطبيعية بوزارة الصحة ـ وكانت كل الكميات التى تم تهريبها إلى البلاد يقوم بها الهواة من البحارة أو المسافرين.

وإذا كان الفراعنة قد عرفوا الحشيش والأفيون منذ عصور بعيدة، إلا أن إدمانه من جانب الشعب المصرى لم يدخل دائرة الخطر إلا فى عصور المماليك والعثمانيين، وظل الحشيش والأفيون على رأس قائمة المخدرات فى مصر حتى الحرب العالمية الأولى عندما بدأت مصر تدخل دائرة السموم البيضاء لتتخلص منها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بفضل جهود رجل إنجليزى صارم اسمه اسل، ولكن فى السبعينات بدأ الهيروين والكوكايين يعودان من جديد ضمن مخطط كبير لتدمير مصر من الداخل.

هذه هى قصة مصر مع المخدرات وقصة المخدرات مع مصر حتى أصبحنا ننفق الآن على هذا الداء اللعين نحو أربعة مليارات دولار فى السنة الواحدة!

لقد فجرت هيام قضية من أخطر قضايا مصر التى يجب أن نقف كلنا صفا واحدا لكى نقول «لا للإدمان وألف لا». . □



٣

هل أقتل ولدى

* النهار كأى نهار صحو محياه.. طيبة شمسه، رطب نسيمه، باسم ثغره.. ولكنه كان بالنسبة لها نهارا عاصفة رياحه.. متجهمة شمسه داكنة سحبه..

جلست أمامى متجهمة مقطبة الجبين تكاد تبكى لو طاوعتها الدموع.. ولكن يبدو أن الدموع فى عينيها قد تحجرت منذ زمان بعيد.

قالت لى:

أنا أم!

وقفت تحية لكل الأمهات فى شخصها فليس فى الدنيا أغلى ولا أطيب ولا أكثر حنانا وعطفا ورحمة من الأمهات وقلت لها:

مرحبا بك يا أمى..

قالت:

أنت تعرف ما هى الأم؟

قلت:

نبع الحنان ونهر العطاء بلا حدود وبلا مقابل..

قالت:

لقد هزتنى قصة هيام التى كتبت عنها والتى قتلت أباها المدمن والذى تحول إلى تاجر للسموم والذى أراد أن يبيعها فى سوق الرقيق من أجل شمة من مخدر.

وأكاد أقول لك أننى أعذرها.. ولو كنت مكانها لفعلت ما فعلت.

سكت مرتديا عباءة الصمت التى تركها لى ذلك الراهب البوذى الذى يعبد الله فى مكان قصى.. والتى مازلت احتفظ بها..

الأم تواصل حكايتها:

أنا أم لشاب فى عمر الزهور يدرس فى جامعة أجنبية فى القاهرة ومتفوق فى دراسته ويملك من مقومات الشباب والوسامة والذكاء ما تحسدنى عليه كل الأمهات من أهلى وصاحباتى وجيرانى.

ولكن الله أراد أن يتعرف على شلة من أصدقاء السوء وهم كثيرون لعلمك ومنتشرون فى كل مكان.. فى الجامعة وفى النادى وفى الطرقات وفى أى مكان تذهب إليه تجدهم أمامك ولا تستطيع أن تعرف

حقيقتهم ولا خبث نواياهم إلا بعد أن يستولوا على أغلى ما تملك فى الحياة وهو ضناك؟

أخذوا منى ابنى فى غفلة من الزمن . . بل فى غفلة منى فلم أكن أنا حريصة على أن أتابعه أو أراقبه ولو كنت أعرف ماسيحدث له لمشيت خلفه خطوة خطوة . . ولذهبت معه إلى الجامعة وجلست إلى جواره فى المدرجات لأدفع عنه ذلك الخطر الذى تسلل إلى كيانه وراح يدمره قطرة من بعد قطرة !

تبكى الأم بلا دموع . . صوت بكاء ولكن بلا قطرات وهى تقول:

أريد أن يعود إلىَّ ابنى استحلفك بالله وبأنبيائه وبأولياء الله الصالحين الذين تكتب عنهم أن تعيد إلىَّ ابنى !

طلبت لها فنجانا من القهوة دون أن تطلب هى ذلك ووضعت أمامها علبة المناديل الورقية وتركت لها الغرفة لمدة دقيقة واحدة حتى تستعيد توازنها واستطيع أن أسمع منها حكايتها كلها .

عدت . . وعادت تحكى:

نحن اسرة ميسورة الحال نملك عزبة فى الشرقية قوامها نحو خمسين فدانا وكلها مزروعة بالبرتقال واليوسفى والمانجو ولنا عدد من الشقق فى القاهرة والإسكندرية وابنى هذا هو وحيدى الذى أترجاه من الدنيا وقد وفرت له كل مايتمناه شاب فى مثل سنه من مظهر وملبس وعربة هى الأولى من نوعها فى القاهرة وهى ماركة فيرارى الشهيرة والتى يصنعون منها فى ايطاليا كل شهر خمس عربات فقط وثمنها يتجاوز ربع مليون جنيه . . أما مصروفه اليومى فهو بلا حدود .

لاتتصور أنه كان شابا مدللا أو مرفها أو رفيقا كبقية الشباب من أمثاله الذين يعيشون نفس ظروفه ولكنه كان شابا مجتهدا ينجح باستمرار وكان من بين الأوائل العشرة فى الثانوية العامة وقبل أن يدخل الجامعة. وقد فضل أن يدرس الكمبيوتر وتخصص فى برامجه المعقدة .. وكان دائما متفوقاً ونابها وغاية فى الذكاء وشعلة من الحركة والتوثب واليقظة.. إلى جانب أنه كان رياضيا يهوى رياضة التجديف وكان بطلا من أبطالها .

وأنا لا أعرف حتى الآن كيف سقط فى حفرة الإدمان وهو بهذه العقلية العلمية الرياضية .. إننى أكاد أجن عندما أفكر فى أننى قد فقدت ابنى لا بالموت ولكنه حى أشبه بالميت .

قلت للأم :

وأنا أنظر فى عينيها التى بداخلها نكد الدنيا بحالها.. كيف عرف ابنك طريقه إلى الإدمان.. وكيف عرفت أنت أنه أصبح مدمنا ؟

قالت :

لقد بدأ وجهه يشحب وطوال الوقت «نفسه مسدودة عن الأكل» وأصبح ينام كثيراً ولايذهب إلى كليته إلا أياما معدودة فى الأسبوع .. وأصبح .. لايذكر أبدا النادى الذى كان يمارس فيه رياضته المفضلة وأصبح يسهر طويلا فى الخارج ويعود أحيانا فى وش الفجر.

وفى أوقات كثيرة كان يصطحب معه شلة من الأولاد والبنات فى مثل سنه إلى البيت يهرجون ويرقصون ويتضاحكون .. وكنت أنا لا أتدخل فيما يفعله لأننى عودته دائما على الصدق والصراحة وبأنه رجل يملك

كلمته وقراره . . وليتنى قد تدخلت ولكن تدخلى كان بعد فوات الأوان !

فى أحد الأيام جائنى قائلا :

ممكن ياماما آخذ عربيتك النهاردة ؟

وسألته: لماذا ؟

قال:

بس عشان العربية بتاعتى بتتصلح !

واكتشفت بعد ذلك أنه قد باع عربته برخص التراب لكى يصرف على هذا المخدر اللعين الذى اسمه الهيروين!

ساكت . . صامت مرتديا نفس عباءة الراهب البوذى . .

الأم تواصل حكايتها :

سأختصر لك الطريق وسأبدأ من الآخر بعد أن باع ابنى سيارته باع ساعته وخواتمه الذهبية واستدار إلى كل شئ فى البيت يبيعه أو يرهنه أو يدفعه مقابل شمات من هذا المخدر اللعين .

سألتها فجاة :

ولكن أين أبوه ياسيدتى . . أنت لم تذكريه بكلمة واحدة طوال حكايتك الحزينة ؟

قالت :

أنا منفصلة عنه بالطلاق وهو تاجر كبير يجوب البلاد العربية

والأوروبية وقد تزوج فى حياته من قبلى ومن بعدى أكثر من سبع نساء وله أولاد فى كل بلد وفى كل مدينة .. أنا لا أنكر أنه يرسل إلينا كل مانريده من مال ولايتأخر علينا فى أى طلب!

قلت لها:

لماذ لم تخبريه بالكارثة التى تعيشينها فإنه ابنه. كما هو ابنك؟

قالت:

لقد فعلت ذلك وأخبرته وقد تأثر بل لقد بكى على سماعة التليفون وأرسل إلى تذكرة سفر لابنه إلى باريس حيث مكتبه الرئيسى الذى يدير منه كل أعماله وقدسافر إليه الولد وبالفعل أمضى هناك نحو ثلاثة شهور.

سألها:

لا تقولى إنه أمضاها فى الفسحة والسياحة والمشتريات!

قالت:

لا بل أمضاها داخل مصحة لعلاج المدمين فى إحدى ضواحى باريس وقد صرف عليه أبوه هناك ألوف الفرنكات وعاد إلىّ صحيحاً معافى مبتسماً وقد كدت أطير من الفرحة وأنا أستقبله فى المطار وعشت أياماً سعيدة بعودة ابنى إلىّ، كما كان قبل أن يلدغه داء الإدمان بنابه الأزرق!

. . . .

. . . .

تنبهت إلى أن الأم لم تشرب. ولا رشفة واحدة من فنجان القهوة الذى أمامها وقلت لها:

القهوة بردت يا هانم!

قالت:

ممكن أشرب سيجارة؟

قلت لها:

أنت فى بيتك وفى دارك.. أشعلت سيجارة وعزمت علىَّ بأخرى أخذتها منها إكراما لها ومشاركة لها فى محنتها.

قلت لها مختصرا الطريق عليها: [ولم يلبث ابنك أن عاد إلى مصيدة الإدمان مرة أخرى].

قالت:

هذا صحيح ولكن ذلك أخذ منه بعض الوقت كان فيه يحاول أن يصمد ولكن إغراء وغواية أصدقاء السوء وربما لأنه لم يقدر على مواصلة طريق الصمود.. لينتهى به الأمر فى النهاية إلى العودة بشراسة إلى حفرة الإدمان.

سألتها:

وماذا فعلت؟

قالت:

لقد أصبحت بالنسبة له كظله لا أتركه لوحده إلا عند ذهابه للجامعة حيث كنت أوصله إليها بسيارتى ثم أعود لآخذه بعد انتهاء المحاضرات.

ولكنه تحول إلى مراوغ كبير وتعلم كل الحرف والحيل لكى يهرب منى إلى رفاق السوء الذين كانوا ينتظرونه وينتظرون نقوده وأمواله..

وبدأت ثروتنا تتسرب فدانا من بعد فدان حتى ضاعت العزبة التى كنا نملكها وأنا شخصيا التى قررت بيعها حتى نصرف على علاجه من هذا الداء اللعين الذى أمسك برقبته.

ثم تحولت إلى مصاغى ومجوهراتى التى ورثتها عن أمى وجدتى.. وتقلصت الشقق التى كنا نملكها شقة بعد شقة حتى أصبحنا لا نملك إلا الشقة التى نسكن فيها الآن!

قلت لها: وأين كان أبوه كل هذا الوقت؟

قالت: أبوه سواح فى كل بلاد الدنيا وله زوجات غيرى.. وأبناء غيره.. وقد تعب الرجل من كثرة ما صرف ومن كثرة ما أنفق.. ونحن لعلمك نعيش الآن على ما يرسله إلينا أول كل شهر!

لقد تحول ابنى إلى نمر شرس عندما يفتقد المخدر ثم يتحول إلى حمل وديع هادئ بعد أن يأخذ نصيبه منه!

قلت: لماذا لم تدخليه إحدى المصحات فى مصر لعلاجه؟

قالت: لقد فعلت كل شئ من أجله... أدخلته مصحات خاصة وصرفت عليه فدادين الأرض التى ورثتها عن أبى وجدى وأمى.. وضاع كل شئ ولم أسترد ولدى بعد!

سألتها: وماذا فعلت المصحات التى دخلها ابنك هنا فى مصر بعد أن فشلت المصحات الفرنسية فى علاجه؟

قالت ساخرة: هل تصدق أن لدينا مصحات لعلاج الإدمان فى مصر؟

قلت: أنا أعرف أننا لا نملك مصحات حقيقية لعلاج الإدمان فى مصر.. وأذكر هنا عندما كتب الأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام كتابه الأول عن الإدمان تحت عنوان «كارثة الإدمان» حمله الرئيس حسنى مبارك أمانة إقامة أكبر مصحة لعلاج الإدمان وإنقاذ مصر من مخطط التدمير من الداخل لو تكلف ذلك ملايين الجنيهات، وتعهد الرئيس بتذليل كل العقبات لإقامة هذه المصحة العالمية لإنقاذ هذا الجيل الحائر من الأخطبوب الجائر الذى يلف ذراعيه حوله.. ولا أتصور أن الدولة تقصر فى توجيه من توجيهات الرئيس وكل ما نرجوه أن يرى هذا المشروع العظيم طريقه إلى النور وأن يخلصه من براثن الروتين وأضابير البيروقراطية!

قالت: فى مصحات علاج الإدمان عندنا يخرج المدمن فى نهاية المدة وهو أكثر إدمانا!

أسألها: إزاى؟

قالت: التمرجية والممرضون يبيعون للشباب المدمن المخدر الذى يطلبه وبالثمن الذى يقدر عليه.. الطبيب يعالج والممرض يزيد المريض إدماناً.. وهكذا «على عينك ياتاجر» يجد المدمن ما يحتاجه داخل المصحة التى يعالج فيها!

لقد صرفت على ابنى داخل مصحات العلاج هنا أكثر من مليون جنيه والولد يزداد شحوباً ونحولاً وهزالاً حتى أصبح مثل الهيكل العظمى يعيش يومه من أجل المخدر ويبيت ليله لكى يصبح فى الصباح باحثاً ومنقباً عن هذا المخدر اللعين!

سألتها: من أين يحصل ابنك على تذاكر الإدمان؟

قالت: المخدرات ياسيدى موجودة فى كل مكان وفى أى مكان فى الباب الأخضر فى مصر عتيقة وفى بولاق وفى ساحة انتظار السيارات خلف أكبر جريدتين فى البلد.. وفى الدراسة وفى شبرا وداخل الأندية العريقة وعلى أبواب المدارس والجامعات الأكثر عراقة وفى المنتجعات والمشاتى والمصايف تأتى كل المصائب!

تنظر إلىَّ بعيون شاردة فقدت بريقها من زمان بعيد وقالت: هل تتصور أننى ولأكثر من مرة ـ ولكى أنقذ ابنى من حالة الجنون التى تنتابه إذا فقد المخدر وأصبح يعض فى بلاط الشقة ويضرب رأسه فى الحائط ويتقيأ ويكاد يموت ـ كنت أذهب بنفسى لكى أشترى له تذاكر الهيروين من الأماكن التى يتردد عليها هو.. وكان باعة المخدرات ينظرون إلىَّ فى دهشة ويتساءلون وهم يمصمصون بشفاههم: كيف عرفت هذه الأم طريقها إلى الإدمان وهى فى هذه السن الكبيرة!.. وهم لا يعرفون أننى أشتريه من أجل ابنى الذى يموت بين يدى مائة مرة!

....

....

تكاد تختفى أمامى داخل سحابة من الدخان وهى تشعل سيجارة تلو

سيجارة وقد همدت من كثرة الكلام والحديث.. أخرجت من درج مكتبى ملفا أخضر اللون.. مكتوب على غلافه كلمة الإدمان وقلت: أتحبين أن تعرفى حجم الإدمان داخل جامعاتنا المصرية؟

قالت: أعرف شباباً كثيرين قد سقطوا داخل دائرة الإدمان لكننى لا أعرف حجم هذه الكارثة التى تأخذ برقاب شبابنا الحائر.

قلت: اسمحى لى أن أقرأ لك ما جاء فى هذا الملف فى دراسة للدكتورة ألفت مهران عن الإدمان داخل الجامعات المصرية.. من أصل عينة قوامها ٤٧٠ طالباً وطالبة من مختلف الكليات، خرجت هذه الحقائق المرة التى أقل ما توصف به أنها فى مرارة العلقم:

١ ـ أنه فى الوقت الذى توجد فيه ٤٪ من حالات الإدمان فقط فى بعض الكليات.. ترتفع النسبة فى كليات أخرى إلى ١٧٪.

٢ ـ أكثر من ذلك وجدوا أن بعض الكليات وصلت فيها حالات الإدمان بين الطلبة والطالبات إلى ٢١٪.

٣ ـ من هذا اتضح أن متوسط حالات الإدمان داخل الجامعات فى حدود ٢٠٪ من الطلبة والطالبات.

٤ ـ اتضح أيضاً أن ٥٢٪ من المدمنين من الطلبة و ٤٨٪ من الطالبات، يعنى تقريباً «النصف بالنصف».

٥ ـ أما عن «الصنف» أى المخدر، فتقول الدراسة أن ٦٠٪ يتعاطون الحشيش والأفيون، وأن ٤٠٪ يتعاطون الهيروين والماكستون فورت.. شماً وحقناً.

هل تعرفين ياسيدتى أن الإحصائيات الحكومية وغير الحكومية تقول إننا لانملك فى مصر لعلاج الإدمان إلا نحو ٣٠٠ سرير لعلاج كل حالات الإدمان فى مصر حكومية أو غير حكومية.. ولقد شاهدت بنفسى فى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية شباباً فى عمر الورد ورجالاً فقدوا صلتهم بالحياة وفقدوا موارد رزقهم يعالجون هناك داخل عنابر تكاد تزدحم بهم ويدفعون كل شهر ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ جنيه بينما المصحات الخاصة يدفع فيها المدمن نفس المبلغ ولكن فى اليوم الواحد!

تقاطعنى بقولها: لقد دفعت كل ما أملكه ومازال ابنى مدمناً.. المدمنون ياعزيزى يدخلون المصحات ويخرجون منها ولم يتغير فيهم شئ ولا تصدق أنه يوجد لدينا شئ اسمه العلاج النفسى الحقيقى للمدمن!

قلت متابعاً حديثها: ولايوجد أى إشراف طبى بعد خروج المدمن إلى بيته وعودته إلى الحياة العامة.. ولايوجد أيضاً علاج المدمن فى منزله.. وهكذا يعود المدمن إلى مصيدة الإدمان، كما يبحث القط عن (خناقه)!

قالت: لقد أغرقتنى فى بحر من الأرقام والإحصائيات ولم تدلنى على طوق نجاة ينقذ ابنى من بحر الهلاك.

قلت: لاخلاص لابنك إلا داخل مصحة حقيقية تحت إشرافك أنت حتى يعود إلى سيرته الأولى صحيحاً معافى.

قالت: قبل أن أمر عليك ذهبت إلى الباب الأخضر واشتريت لابنى نصيبه اليومى من المخدر تذكرتين هيروين.. ها هما!

وأخرجت الأم لفافتين كل لفافة تشبه اللفافات التى كان بقال شارعنا فى شبين الكوم يلف فيها الكمون والكزبرة والفلفل الأسود!

لم أندهش لما فعلته الأم فهى أم ولا يضيرها أبداً أن تتحالف مع الشيطان لكى يعيش ولدها.. حتى لو كانت تقوده إلى طريق الدمار بأيديها!

قلت لها: أرجوك أن تخفى هذه التذاكر حتى لاتقعى تحت طائلة القانون فالشرطة لن ترأف بحالك ولن يصدقوا روايتك وأنك تشترين المخدرات من أجل ابنك!

قالت: أنا لايهمنى شئ.. كل مايهمنى أن يعيش ولدى وحتى لا أتعرض إلى إهاناته وضربه لى!

كأن ثعباناً جريحاً قد لدغنى.. سألتها: أحقاً يضربك ابنك؟

قالت: عندما يفتقد المخدر ولا يجده أمامه يتحول إلى تكسير كل شئ فى البيت ثم يستدير إلىَّ.. يهزنى بعنف.. يبكى أحيانا ويتوسل أحياناً ويتحول إلى كلب جريح يعوى ويتمرمغ فى الأرض ويعض بفمه فى السجاجيد.. ثم يدفعنى دفعاً إلى خارج الشقة لكى أعود له بالمخدر!

وبالطبع أخرج إلى الطريق وأبيع أى شئ أملكه ولاأعود إلى البيت إلا ومعى تذكرة الهيروين، كما فعلت اليوم!.. [قلت: وهو ينتظر فى البيت حتى يأخذ جرعته اليومية من المخدر]!

قالت: أجل قد تحول إلى هيكل عظمى تتردد فى صدره أنفاس الحياة!

تنظر إلىّ بعيون قد تجمد فيها الدمع وقد جفت كنهر غاب عنه الفيضان وتشققت أرضه ظمأ وعطشا وقالت بصوت أدخل الخوف إلى قلبي: هل تتصور أنني فكرت أكثر من مرة أن أقتل ابني ليستريح من عذابه اليومي ثم أقتل نفسي بعد ذلك.. حتى يستريح هو وأرتاح أنا عندما يتخلص ابني من عذاب كل يوم!

. . . .

. . . .

بكت أمامي بكاءً مراً بدموع هذه المرة.. دموع أم لاتكذب ولا تتجمل.. وتركتها تبكي وأنا لاأعرف كيف يمكن أن أمد لها يد الخلاص ولا أملك وحدي طوق النجاة بعد أن وصلت حالة الإدمان في مصر إلى هذه الدرجة المرعبة حتى أن الخزانة المصرية تتكلف كل عام نحو ٤ مليارات دولار هي حجم تجارة المخدرات في مصر. وأصبحت مصر دولة مستهدفة لتجارة المخدرات العالمية وأصبح لدينا قرابة أربعة ملايين إنسان يعانون من حالة الإدمان.. لابد لنا من وقفة قومية لكي نخلص هذا الجيل الحائر قبل أن يغوص في بحر الضياع بلا عودة.

لدينا قانون ولدينا أحكام في المحاكم.. أحكام بالإعدام على المهربين وتجار المخدرات ولكننا لم ننفذ إلا حكماً واحداً بالإعدام على مهرب باكستاني..

ولدينا في السجون المصرية أكثر من محكوم عليهم بالإعدام ممن يهربون المخدرات أو يتاجرون فيها مازالوا ينتظرون ساعة التنفيذ ولكن الانتظار طال ولم ينفذ حكم واحد فيما عدا هذا الباكستاني.. حتى تجار

المخدرات فى مصر لا يسقط فى أيدى العدالة إلا الصبية الصغار أما الكبار فإنهم لا يخضعون تحت طائلة القانون.. لأنهم قادرون ويملكون الحيل التى يمتلئ بها جراب كبار المحامين الذى يتناول منهم الواحد أرنباً كاملاً يعنى مليون جنيه فى كل قضية.. حتى يعيشوا عيشة الملوك ولايهم أن يسقط هذا الشباب الطيب بين براثن الإدمان!

. . . .

. . . .

تركت الأم الطيبة الصامدة الصابرة تمضى إلى حال سبيلها وإلى المأساة التى تنتظرها فى بيتها.. دون أن أجد ما أقوله لها.. أو حتى أشفى غليلها!

والسؤال: هل أتركها تفعل ما تضمره فى صدرها.. وقد تضعف يوما وتتخلص من وحيدها ثم تقتل نفسها.. أم أجد لديكم حلاً لمأساتها.. مأساة أم يموت ابنها كل يوم بين يديها ألف مرة؟ □



٤

الأفعى تسكن صدورنا

* جاءنى صوتها عبر سماعة التليفون خافتا متحشرجا كأنه قادم من العالم الآخر: لقد قتلتنى مرتين!

سألتها مذعورا: متى.. وأين.. وكيف؟

قالت بنفس الصوت المبحوح المتحشرج: مرة عندما أيقظت فى المواجع بقصة هيام التى قتلت أباها مدمن الهيروين الذى باعها هى وأخواتها البنات فى سوق الرقيق..

قلت: هذه مرة..

قالت: والأخرى عندما قطعت قلبى بحكاية الأم التى يموت ابنها بين يديها كل يوم مائة مرة.. وهى لا تستطيع أن تفعل له شيئا..

قلت: أعرف من صوتك أنك أم.. والأم نبع من الحنان وفيض من العطاء ونهر من التضحية.. وتخافين أن تطول إحدى أذرعة أخطبوب الإدمان ابنا من أبنائك.. فتعيشين مأساتها وتتألمين ألمها!

اجتاحها فيضان من دموع لاأدرى من أين أتى.. وهى تصرخ بصوت مكتوم كأنها تتلهف على طوق لنجاة ينجيها من غرق: لقد فقدت ابنى!

قلت: بالإدمان؟

قالت: نعم.. ضاع منى.. ذهب إلى حيث لا يرجع أحد!

سكت.. أغلقت فمى وكتمت أنفاسى.. ووضعت على كتفى بردة الكاهن البوذى الذى يعبد الله فوق قمة جبل عال من جبال التبت.. فأمام أم فقدت ابنها.. لا تملك إلا السكون والهدوء والطاعة.

تركتها تأخذ وقتها فى البكاء.. فهذا حقها أن تبكى وأن ننتظر..

قالت كلاما ممزوجا بالدمع.. وربما دمعا ممزوجا بالكلمات: لقد كان لى ابن فى مثل عمر ابن هذه الأم الملتاعة.. كان طالبا فى الجامعة مثل ابنها.. وكان زينة شباب العائلة.. ولاأدرى لماذا يختار الإدمان ضحاياه من الزهور اليانعة.. والورد المتفتح دائما.. كان ذكيا نابها ظريفا مرحا.. وكنا نخاف عليه من العين ومن نسيم الهواء.. وككل الأمهات والآباء لم ندر أن ابننا قد سقط فى حفرة الإدمان إلا بعد فوات الأوان.. وراح ابنى يذوب بين أيدينا يوما بعد يوم.. كطائر أصابه سهم مسموم.. ونحن نحاول أن ننقذه دون جدوى.. وتمكن منه داء الإدمان.. وأدخلناه المصحات.. وأتينا له بأعظم الأطباء، وكان ينتفض

أياما ويصحو وينتعش ويعيش حياته، كما كان ونظن أن الله قد أراد له النجاة مما هو فيه.. وأراد لى أن تجف جداول أحزانى وتصفو أيامى.. وأمضغ لقمة هنية بدون دموع.. ولكنه ما يلبث أن يعود إلى مصيدة الإدمان بقدميه.. بإرادته أو غصبا عنه.. فقد اصبح فى النهاية مثل الريشة فى مهب الريح..

ولفرط خوفي عليه - وهو يدخل الحمام لكى يستحم - من أن يختنق بالغاز.. فتحت فتحة للتهوية أسفل الباب.. كما يفعلون فى الفنادق.. حتى جاء صباح أسود من ليل الأرامل..

مازال صوت دموعها ينساب إلىّ بالألم عبر سماعة التليفون.. هى تنتحب وأنا أنتظر ماذا يحمل لنا هذا الصباح الأسود..

قالت: لا أعرف لماذا استيقظت فجأة فى الصباح الباكر وقبل أن تطلع الشمس وياليتنى استيقظت قبل هذا.. أولم أنم هذه الليلة أبدا.. ولكن إرادة الله نفذت كحد السيف.. وذهبت إلى الحمام.. لأفاجأ بأبشع مشهد يمكن أن تراه أم فى حياتها.. لن أنسى أبدا ما رأيت.. باب الحمام مغلق من الداخل.. ويد ابنى ممدودة من الفتحة التى فتحتها أسفل الباب خوفا من أن يختنق بالغاز.. كسرت الباب بكل ما فى من قوة.. لأجد ابنى ممدا على الأرض.. كان باردا كالثلج.. لم يكن هناك نبض أو دقات فى صدره.. حاولت أن أوقظه.. ناديت عليه.. صرخت بكيت حملته بين يدى ولكنه كان هامدا بلا حراك بلا حياة.. وبجانبه حقنة كان قد غرسها فى ذراعه ليأخذ جرعة هيروين.. كانت فيها نهايته.. ونهايتى معه!

لم أجد ما أقوله لها..

.. وماذا نقول لأم فقدت وحيدها بعد أن أصابه ثعبان الإدمان فى مقتل؟..

الكلمات هنا ماذا تفيد بعد فقدان أعز الأحبة؟..

ولا ألف بيت من شعر الرثاء ولا ألف ديوان مواساة يعيد الذى فرد شراعه وذهب بزورقه إلى نهر بلا عودة!

هى التى قالت بعد أن قهرت حزنها للحظات ووضعته خلفها كظلها: أخشى على أحفادى الآن أن يطولهم أخطبوط الإدمان اللعين بذراعيه التى لا تهدأ ولا تكف عن لدغ أغلى الناس وأحب الناس.. أريد أن أقول لكل أم الا تغمض عينيها أبداً عن ضناها.. ولو أدى بها الأمر الا تفارقه ليل نهار.. أليس هذا أهون من أن يفارقها إلى الأبد؟..

أنا ألوم نفسى فى اليوم مائة مرة.. فلو أننى ما غفلت عنه.. ماضاع من بين يدى وتسرب كسحابة صيف لاتعود أبدا..

وضعت سماعة الأحزان..

ولكنها أبت إلا أن تدق..

قالت لى عبر سماعة التليفون: أنا أم.. مثل صاحبة المأساة التى كتبت عنها.. وسألتك.. هل أقتل ولدى لأرحمه من ضعفه ومن ضياعه ومن هوانه فى الدنيا؟

قلت فى نفسى دون كلام: هذا لعمرى.. هو يوم الأمهات..

تابعت الأم كلامها فى وضوح ودقة: لايهم أن تعرف اسمى.. ولكننى أشفق كثيرا على هذه الأم التى تركت وحيدها حتى وصل إلى هذه الدرجة من الإدمان.. وقد قال الحق عز وجل فى كتابه العزيز: «وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين»..

ياسيدى.. أحموا أهل البلاء واسألوا الله العفو والعافية..

ياسيدى لقد أصبح الإدمان بلاء هذه الأمة.. من يتصور أن لدينا فى مصر أكثر من ثلاثة ملايين شاب مدمن.. هل تعرف.. أننى قد مررت بتجربة مماثلة لما تعانى منه هذه الأم التى تريد أن تقتل ابنها..

قلت: تانى!

قالت: وثالث ورابع.. مادام الأزواج والآباء يحلو لهم الآن السفر.. والسعى فى بلاد النفط تاركين أولادهم وبناتهم وزوجاتهم فى مهب الريح.. فقد تركنى زوجى وسافر إلى الخليج فى فترة السبعينات وترك لى ابنين فى ريعان الشباب.. أخذا طريقهما إلى التفوق والنجاح، ولكن أصدقاء السوء أخذوا حلمى الأكبر من بين يدى فوقع ابنى الأكبر فريسة للإدمان!

أسألها: هل أدمن الهيروين؟

قالت: الحمد لله أنه لم يصل إليه.. وإنما أدمن البانجو والماريجوانا!

أسألها: وماذا كان يفعل؟

قالت: كثيرا ما كان يطيح فى أنا وأخوه الأصغر ويمسك لنا السكاكين وكنا نستنجد بالجيران!

قلت: وماذا فعلتم له؟

قالت: دفعنا كل ما نملك وكل ما أدخره أبوه وشقى من أجله فى الخليج.. حتى مَنَّ الله عليه وعلينا بالشفاء!

قلت: وماذا تفعل أم هذا الشاب الذى أصبح لاحول له ولاقوة؟

قالت: أنصح هذه السيدة.. بأن تأخذ ابنها وتسافر به إلى زوجها وتترك الولد لذلك الرجل المزواج.. وحرام أن تتحمل كل شئ لوحدها.. وأن تتناسى عاطفة الأمومة التى عندها.. عليها أن تكون أكثر قسوة..

قلت: فى هذا الزمن الصعب.. لاتجد الأم الوحيدة ماتفعله وهى تشاهد ابنها يموت بين يديها فى اليوم مائة مرة!

قالت كأنها الحكمة تتحدث: يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «فأعوذ بالله من زوجة تشيبنى قبل المشيب ومن ولد يكون علىَّ سيدا».

فالعاطفة قد أعمت قلبها.. فهى ستدمر الولد وستدمر نفسها معه.. فالخوف هنا على الأم.. فمن الممكن أن تكون فريسة لأحد باعة المخدرات الذى تشترى منه هذا المخدر اللعين، وهنا تصبح المأساة مضاعفة وذلك بسبب الأب الشارد السواح فى العالم.. فما زال على قيد الحياة ويجب أن يتكفل بالولد فلا تكفى دموع هذا الرجل..

والعار كل العار على المادة والفلوس وغياب القدوة.. كان الأب مهيمنا على أسرته فأين نحن من كل ذلك الآن؟

وفى طفولتنا كنا نأخذ مبادئنا من بابا شارو وبرنامجه الشهير.. وأذكر أننى تعلمت مبادئ الصلاة من أغنية كانت تذاع فى الإذاعة.

قلت: صدقت والله ياسيدتى..

قالت: أرجو أن تسمعنى هذه الأم الآن لأقول لها: سيدتى.. كونى قاسية على ابنك حتى لو قمت بتسليمه للشرطة بنفسك.. فاليتيم ياسيدى ليس من فقد أباه أو أمه.. ولكن من له أم تخلت عنه وأب مشغول..

سكتت الحكمة.. وقالت لى: سلاما.. فالقضية تحتاج إلى تكاتف قومى.

....

....

ما أكثر الذين يتألمون فى هذا البلد..

وما أكثر الذين يتوجعون فى هذا الزمان الردئ..

والذى يتألم يصرخ.. أو حتى يطلق الآه.. من فمه ومن قلبه ومن كل كيانه..

والذى يتألم ولايجد من يسمعه.. يرفع سماعة التليفون ـ إذا كان عنده تليفون ـ ويتحدث إلى من يتوسم فيهم أنهم من أهل المروءة.. وما أقلهم فى هذه الأيام وما أندرهم.. يطلب المشورة أو المعونة أو حتى كلمة طيبة تضمد جرحا أو ترفع غمة..

أما الذين يمسكون بالقلم والورق ويكتبون ما فى صدورهم فإنهم أكثر الناس ألما.. وأكثر الخلق إحساسا.. فقد فاضت بهم المواجع.. ولم يجدوا إلا الأقلام والأوراق يبثونها دم قلوبهم.. بالصدق كله والإحساس كله..

وقد تحركت مشاعر الناس.. بعد أن هزتهم من الجذور حكاية هيام التى لم تجد طريقا للخلاص ممن باعها مع أخواتها فى سوق الرقيق إلا أن تقطع رأس الأفعى حتى لو كانت هذه الأفعى ذات السموم الناقعات هى أباها نفسه..

كما هزتهم ـ كما تحرك الرياح العاتية سطح بحيرة هادئة ـ حكاية الأم التى تريد أن تريح ابنها من عذابه بعد أن أمسك الإدمان برقبته.. بأن تقتله حتى لا يموت أمام عينيها فى اليوم مائة مرة..

أمام عينى هرم من الرسائل.. كلها تتحدث عن هيام والأم الحائرة.. كل واحد وكل واحدة رأت المأساة بعينها.. و لكنهم أجمعوا فى النهاية على أننا نعيش فى ظل مأساة حقيقية.. وأن ثعبان الإدمان يأكل أولادنا.. ويدمر مصر من الداخل.. ويبقى فى النهاية أن الأفعى التى نحاول أن نقطع رأسها فى داخلنا نحن ومازالت تسكن صدورنا وبيوتنا..

ولنترك الناس يتكلمون:

* * السيدة هناء محمد الشنوانى ـ ليسانس لغة عربية من الاسكندرية ـ كتبت إلىّ تقول: فهذه المأساة تدع الحليم حيرانا وأننى أتساءل هل لزام

علينا أن ندخل الغابة حتى نراها على حقيقتها؟.. أننا لو فعلنا ذلك لهلكنا، وكل معلوماتنا عن الغابة تصلنا عن طريق الكتب أو الأفلام التى يصورها المتخصصون.. لقد أدخل الوالد أسرته فى الغابة التى حذرتنا منها وسائل الإعلام، ولقد باع كل ثروته ورغم ذلك عندما جاء إلى بناته وزوجته فتحن له الباب على مصراعيه مندفعات بعاطفة الأبوة.. إن هذا الرجل ليس بأفعى فهو لم يتسلل وينقض عليهن فجأة بدون سابق إنذار، كما تفعل الأفعى التى لا تمهل الضحية وإنما كانت هناك مقدمات على مدى ثلاث سنوات ثم مجئ أصحابه وإرغامه لبناته على تقديم المشروبات لهم.. لو كانت الأفاعى تتسلل أعواما قبل الانقضاض على الضحية بل ساعة واحدة، لما سمعنا عن قتيل مات بسمها.. إننى أكتب هذه الكلمات بدموعى لأننى أتخيل أن هذه الفتاة هى أنا، وأعرف قسوة الحكم بأن تنسى الابنة أباها المدمن وأن تتبرأ منه.. وفى نظرى أن الأفعى الحقيقية هى العاطفة التى تعمى المرء وتجعله لا يفكر تفكيرا واقعياً، هذه العاطفة التى منعت البنات من أن يبلغن عن أبيهن عندما خطت أول قدم منزلهن من أصدقاء السوء..

إن الأفعى ياسيدى فى داخلنا نحن والدليل على ذلك أننا لا نشعر بها لنعومتها وهى تفتك بنا وتبث سمومها فى أوصالنا، فتشل إرادتنا عن اتخاذ القرارات ومن العجب أنهن لم يتخذن قرارا كالفرار من أبيهن لأنهن إذا فعلن ذلك لم يكن ليلومهن إنسان، لأنهن يحافظن على أنفسهن.. أين الإرادة التى قتلت بها والدها؟.. لقد قتلته لتنتقم لشرفها فقط، فلقد وافقن على دخول الرجال الغرباء إلى المنزل طالما أن هذا لايمس شرفهن، وبعدما حدثت المأساة قتلت والدها انتقاما لنفسها.. لقد

كان فى مقدور هؤلاء البنات العيش بكرامة بعيدا عن أبيهن فى أى مكان وبدون أن يعرف طريقهن. . إن الشر وجد مع الإنسان ولذلك نزلت الشرائع السماوية بالأحكام الرادعة والتى ينبغى أن تنفذ بلا هوادة ولا رأفة حتى لا يتحول البرئ إلى مجرم رغما عنه. . فليس من حق هذه الفتاة أن تقتل أباها فهذه مهمة القانون. . وإذا كنا معجبين بشجاعة الأجانب وقدرتهم على المطالبة بحقوقهم إلى درجة أن الولد قد يشكو أباه فى البوليس إذا ضربه، فإن من المسلمين من هو أشد شجاعة وأكثر بأسا وفى نفس الوقت أكثرهم رحمة فهى رحمة قائمة على العدل حيث أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها غير متردد فى ذلك. . أنها القوة فى الحق وفى الحفاظ على الحرمات والتاريخ الإسلامى ملئ بالنماذج التى تجردت من عاطفة الدم والقرابة لأجل الحق والرحمة والخير. . لست أعنى أن تتخلى كل أسرة فيها مدمن عنه وتطرده، وإنما عليها محاولة علاجه وإذا كان ذا مال فلتحجر عليه حتى لايتلف ماله، فإذا صمم بعد ذلك فله أن يختار حياته وهو مسئول عن أفعاله ـ ولاتزروا وازرة وزر أخرى ـ بعيدا عن أسرته وهى بدورها عليها أن تقتل الأفعى التى بداخلها وتبلغ عنه الشرطة ليتم حصر المدمنين وعلاج كل ظاهرة إجرامية علاجا جذريا بعيدا عن العواطف.

* الدكتور أحمد السعيد استشارى الجراحة كتب يقول: نعم ياسيدى أخطأت هيام. . أخطأت حين «قبلته» هى وأمها وأختاها بينهن بينما هو يتاجر فى الكيف. . والعيار الذى لايصيب يدوش. . «ومن جاور الحداد انكوى بناره». . والمقدمات السيئة تصنع نتائج أسوأ. .

رجل أصبح لايغار على عرض بناته. . وعندها تصبح المسألة مسألة وقت فقط. ياأستاذ: من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه!

* * سحر محمد بدوى ـ ميت خميس ـ المنصورة كتبت تقول: ليس بأيدينا تغيير الكون. . ولكن لانريد أن نصحح خطأ بخطأ أكبر. . فلم أكن أتوقع مافعلته الأخت الفاضلة فى أبيها مع أنه يستحقه ولكن قتل النفس حتى الشريرة فكرة صعبة. . مع الاحتفاظ برأيى بأنه يستحق. . ولكن للعدالة طريقها للانتقام من هؤلاء. . وأريد الاطمئنان على هذه الأخت. . أين هى الآن. . هل قابلتها فى أحد السجون. . هل قابلتها فى مستشفى تعالج من أزمة نفسية. .؟ أريد الاطمئنان عليها. . ولها الله فى نسيان مامرت به من آلام، وطريق النسيان من أى شئ هو الله عز وجل. . وأريد أن أطمئنها بأن الدنيا بها الكثير والكثير فهناك ماهو أصعب مما حدث لها. . هناك الأب الذى يغتصب ابنته. . هل يجول بخاطرك هذا الحدث. . كفى حديثا ودعنا من اللوم على أنفسنا وعلى الباقين.

والصلاة ياسيدى، الصلاة. . التقرب إلى الله والاستغفار. . ولها الله ولنا جميعا. .

* * أما عبدالرازق آدم حسنين ـ بإدارة دشنا التعليمية فقد كتب إلىّ يقول: سؤال الفتاة فى آخر قصتها «هل أنا مخطئة؟» هنا أقول لها: لا يا ابنتى. . والله لو كنت قاضيا وعرضت على هذه الجريمة لوقفت فى منصة القضاء إكباراً وإجلالا لك. . وأقول لك: لقد سبقتك أخت لك فى هذا العمل وهذا الصنيع فى عهد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب. .

«كانت فتاة تعيش مع والدها وبعد وفاة أمها أصبحت وحيدة وكانت فى سن الشباب المكتمل.. وجاءت إليها عجوز كانت الفتاة تحنو عليها لضعفها وتقدم سنها، وتناديها ياأماه.. جاءت إليها لتقول لها إننى سأغادر الديار وتاركة خلفى فتاة فى مثل سنك وأخشى عليها غدر الزمان والوحدة.. وهنا قالت الفتاة لها ستكون معى كأختى وأنا على استعداد لاستضافتها عندى ولحين حضورك..

وتقول الفتاة لسيدنا عمر عندما جاء ليحاكمها: إننى إستقبلتها كأخت تنام معى فى فراش واحد وغطاء واحد.. وفى ليلة من الليالى وجدتها تتملكنى فلم تكن فتاة إنما كانت فتى!

وعندما تخلصت منه أسرعت إلى السكين وقطعت رقبته وألقيته فى المكان الخرب حيث وجدتموه.. وبعد تسعة شهور أيضا ألقيت بنتيجة هذا اللقاء «الطفل الصغير» الذى وجدتموه فى نفس المكان.. ويقف خليفة رسول الله لها قائلا: اللهم عجبا.. قاتل فى الجنة ومقتول فى النار!!

وبهذا حكم الخليفة وفى هذا إجابة لسؤالك..

* * وكتبت السيدة نعمات محمد عثمان ـ مديرة مدرسة بالجيزة ـ تقول: إن هذه القصة هزت مشاعرى وكيانى كله لأنى أم فتحجرت الدموع فى عينى لأن فى مثل هذه المواقف لا يجب البكاء بل يتملك الإنسان الغيظ والحقد، فهيام قضى الجرح الدامى على ما عندها من عواطف تجاه أبيها حتى قتلته.. وأنا لا ألومها ولكن قطع رأس الأفعى يكون قبل أن تلدغنى وتسكب سمها فى جسدى.. أما الإجابة عن السؤال الأول وهو هل أخطأت هيام؟

نعم أخطأت هى وأمها وأختاها وإن كانوا صغارا لايقدرون العواقب والقى المسئولية على الوالدة لأنها قائدة البيت وعجلة القيادة بيدها ويجب على القائد اليقظة عند الخطأ خاصة فى بيت به بنات ولهن مستقبل يحتاج إلى حرص كبير.. وأنا أقول هذا الكلام من كل قلبى لتسمعه وتقرأه كل أم إذا شئت سيادتكم حتى لايحدث ما حدث لأسرة هيام لاقدر الله.. كان يجب عليها عدم البقاء مع زوجها ساعة واحدة ولاتتيح له فرصة دخول شقتها الصغيرة ولو بالاستعانة بالشرطة، فهو مدمن ويعاقب على إدمانه، وهذا هو الحل الحاسم فلا تترك الأمور فيقع المحظور..

* * جمعية محاربة الإدمان.. أرسل إلىّ رئيسها هشام عباس المحامى ومستشارها القانونى سعيد عبدالخالق يطلبان تبنى قضية هيام والدفاع عن قضيتها التى أثارت الرأى العام بأكمله.. وأن تحضر هيام معنا مؤتمرا كبيرا تدافع فيه عن نفسها..

* * وأرسل محسن خمامى - المحامى بالنقض - يقول: إيمانا منى بالجانب الإنسانى من مهنة المحاماة التى أشرف بالانتماء إليها.. يسعدنى أن أبعث إليكم هذه الرسالة مبديا استعدادى للوقوف إلى جانب هذه الفتاة والدفاع عنها لتوضيح الأمور لجهات القضاء حتى يتبين لرجال العدالة أن التى تقف أمامهم هى إنسانة دفعتها ظروف قاسية للتصرف على نحو يجرمه القانون.. إلا أن الجانب الإنسانى من الأحداث يحتم تصور الأمور على نحو آخر.. وإننى على يقين أن الكثير من الزملاء

من أهل الفضل من المحامين سوف يحرصون على أداء دور فى هذا المجال.. وأرجو أن أكون واحدا من هؤلاء حتى يتأكد الجميع أن منابع الخير لن تجف فى أرض هذا الوطن الكريم مصر الخالدة..

* المحاسب حاتم فوزى ـ من الشرقية ـ يوجه رسالة إلى الأم التى أدمن ابنها ويراودها تفكير شيطانى أن تقتله حتى يستريح وتستريح: للأسف الشديد أن هذه الأم هى السبب الرئيسى فى ضياع هذا الابن بعد أبيه طبعا.. فالأب تزوج وأنجب ثم انفصل عن الأسرة وأخذ يجمع فى الأموال ويشبع رغباته ونزواته ويتزوج ثانية وثالثة وينجب أبناء ويتركهم فيرسة للشيطان والضياع.. وهذا بالطبع حال آباء وأمهات كثيرين فى زماننا تركوا أبناءهم وسافروا للدول العربية والأجنبية بحثا عن المال. وعندما يعودون من هذه البلاد بعد عدة سنين قد تصل إلى عشر سنوات محملين بالأموال والهدايا يجدون أنهم قد عادوا بعد فوات الأوان وأن الأبناء أصبحوا فريسة سهلة لأصدقاء السوء والشياطين من الإنس والجن..

أما بالنسبة للأم فهى قد بالغت فى تدليل الابن وإعطائه المال بلا حدود فالشباب والمال مثل البنزين والنار، وحدث طبعا مالايحمد عقباه، واندفع الابن فى تيار الفساد والإدمان.. وأخيرا تقول الأم ماذا تفعل مع ابنها هل تقتله.. وهذا بالطبع تفكير شيطانى ولا يعتبر حلا للمشكلة إلا فى نظر الشيطان. والأم تقول أنها صرفت الملايين من الجنيهات فى علاج ابنها ولافائدة وتقول أيضا أنها طرقت جميع الأبواب دون جدوى..

وأحب أن أقول لهذه الأم المسكينة إنك ياسيدتى على ما أعتقد طرقت جميع الأبواب ما عدا باب الله سبحانه وتعالى.. فإنه الملجأ الوحيد لك والحل الأوحد لهذه المشكلة.. فالله سبحانه وتعالى من فضله علينا أنه إذا نسيناه سبحانه وتعالى يبتلينا لكى نعود إليه ونستجير به سبحانه وتعالى، فنحن جميعا فى زحام هذه الدنيا العجيبة وهذا الزمن الصعب الملئ بالمشاكل والماديات والأحقاد والضغائن والنفاق والحروب، ننسى الله سبحانه وتعالى.. فياسيدتى توجهى إلى الله بقلب خاشع ونفس نادمة تائبة وتوسلى إليه سبحانه وتعالى وتضرعى إليه بدموعك وبجميع جوارحك أن يخفف عنك وعن ابنك وأن يهديكما سواء السبيل..

** أما حمام السعيد - مدرس ابتدائى من المنزلة دقهلية - فقد كتب يقول: أرى أن الأم هى السبب الرئيسى لإدمان ابنها الهيروين وذلك بالأغداق عليه بالأموال وشراء أحدث السيارات «فيرارى» وعدم مراقبته ومعرفة أصدقائه وسلوكهم والسماح لهم بالرقص والسهر فى البيت.. وللأسف فإن التفكك الأسرى لايجنى ثماره السيئة سوى الأبناء وتشردهم وانحرافهم والذى زاد الطين بلة شراء الأم التذاكر لابنها خوفا من انتحاره.. ألا تدرى هذه الأم أنها تساعد ابنها فى الموت البطئ بدون قصد كالدبة التى قتلت صاحبها.. الحل الوحيد أن تقوم الأم بتسليم ابنها إلى مصحة موثوق فيها لعلاجه ومتابعته وبمساعدة من الأب.. والعلاج ليس بمستحيل، ولكن لابد من المراقبة والمتابعة وإبعاده عن رفقاء السوء بتشديد الرقابة على الأندية الرياضية لأنه - للأسف الشديد - تباع تذاكر الهيروين جهارا نهارا أمام أبواب الأندية والشباب المدمنون

معروفون فى الأندية والتجار معروفون وأطالب بإعدام التجار أمام الأندية حتى يكونوا عبرة لمن تسول لهم أنفسهم على تدمير الشباب. .

. . . .

. . . .

من يقطع رأس الأفعى؟

لست أنا وحدى ولست أنت وحدك. . ولكننا كلنا علينا أن نشارك فى قطع هذه الرأس التى تريد تدمير مصر كلها من الداخل. . إن مثلث الشيطان مازال يفتح أبوابه. . والأفعى مازالت تسعى داخل صدورنا. . بيوتنا. . أنفسنا. . فى مأساة الأم التى تريد أن تقتل ابنها لتخلصه من براثن الإدمان. . وهيام التى قتلت أباها المدمن دفاعا عن شرفها وشرف أختيها. . ويمكن أن يتكرر. . بل هى موجودة بيننا والدليل هاتان الرسالتان القصيرتان:

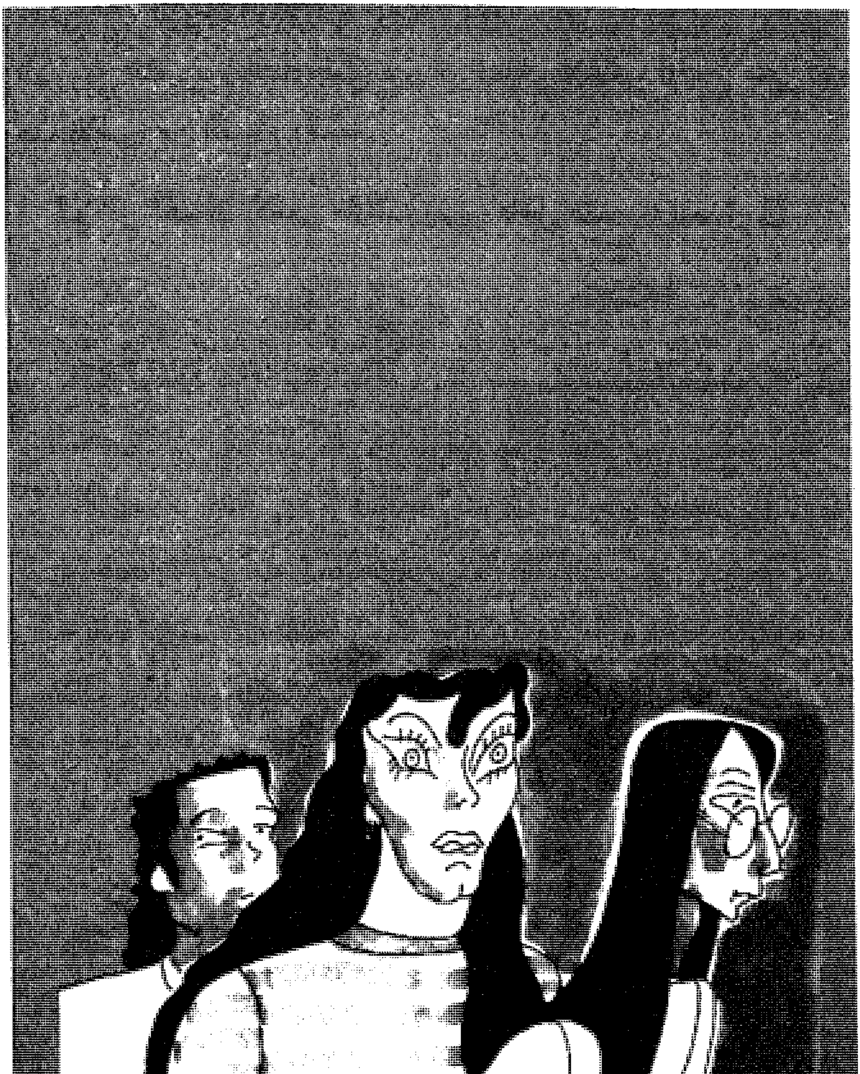
رسالة من باحث اجتماعى لدى اسمه وعنوانه كتب يقول:

* حكاية هذا الأب الملعون الذى أدمن وقطعت رأسه هيام حدثت معى أنا وأسرتى بسبب هذا الأب المدمن الذى ظللنا نعانى منه سنوات طوال وحتى الآن. . فهل نكون مخطئين إذا فعلنا ما فعلته هيام؟

* والرسالة الثانية يقول صاحبها ولدى اسمه وعنوانه: لقد هالتنى قصة هيام ويالها من قصة دامية حقيقية، وما أكثر القصص والمآسى التى لايصدقها عقل بشر. . وإننى ياسيدى أعيش فى ظل قصة رهيبة ومأساة

مدمرة.. الزوجة والأولاد وأنا.. دمار وموت بطئ.. والسبب الهيروين اللعين.. عندى أمل كبير أن أقابلكم لأحكى لك.. حتى ننقذ هذه الأسرة من الضياع والدمار..

ألم أقل لكم أن الأفعى مازالت تعيش داخل صدورنا نحن؟ □



٥

مثلث الشيطان

* المصلون فى جامع عمرو بن العاص ـ الذى سمعت القارة الأفريقية كلها أول أذان للصلاة من فوق مئذنته ـ لم يفرغوا بعد من صلاة العشاء.. نحن فريق أجراس الخطر. اسلام فارس وماجدة شرف ومحمد فؤاد وأنا ندب بأقدامنا خلف صبى صغير: يقودنا إلى حيث طلاب الجرعة.. عند المعلم الكبير.. فى حارة سد، توقف وقال مشيرا بيديه وسط عتمة الليل عارف الباب الخشب اللى هناك ده.. تلاقى طابور طويل.. أقف فيه.. لما ييجى دورك تأخد نصيبك من الصنف..

قلت لمرافقى إسلام فارس المخرج المبدع: الواد فاكرنا عاوزين نشم.. تذكرة هيروين.. واللا عاوزين سرنجة ماكس فورت!

قال: ربنا يستر..

عند دوران الحارة.. فوجئنا بطابور يتلوى كثعبان أعمى قوامه وجوه

لطيفة ظريفة.. من أولاد الناس.. لا يفترقون أبدا عن أولادى وأولادك.. بناتى وبناتك.. نعم هاهن أمامى.. جميلات صغيرات.. كأنهن خارجات من قاعة محاضرات أو محل كوافير.. أو مكان للعمل.. نقترب من واحدة منهن.. نسألها: إنتى جاية هنا ليه؟..

قالت بتثاقل: وبتسأل ليه؟..

قلنا: يعنى حضرتك جاية لحد هنا عشان إيه؟..

قالت وكأنها تتسلى حتى يجئ دورها: الهباب اللى مايتسماشى.. حقنة كل يوم!..

قلنا بسذاجة متعمدة: خير.. هو إنتى بعد الشر عيانة؟!..

مصمصت بشفتيها وقالت: يا أفندى أنا إنسانة ضايعة.. عارف إيه يعنى ضايعة؟.. لو ما أخدتش سرنجة الماكس أطب من طولى ساكتة.

نسأل: وبتكلفك الحقنة كام فى اليوم؟..

قالت: عشرين جنيها..

سألنا: منين؟..

قالت: موش من حقك تسأل!..

قلت: إنتى بتشتغلى؟..

قالت: لا.. أنا طالبة فى الجامعة..!

قلنا: وطبعا بابا هو اللى بيصرف عليكى!..

قالت بلكنة ظريفة: دادى إيه.. دا مسافر ٣٦٥ يوم فى السنة.. أصله بيكافح فى الخليج.. ومتجوز واحدة ثانية عايشة معاه هناك!..

سألنا: وإنتى؟..

قالت: عايشة مع أمى وأخواتى الثلاثة ودادى بيبعت لنا مصاريفنا كل شهر!!..

نسألها: إيه اللى رماكى على الصنف ده؟..

قالت: إللى أمر منه!..

قلنا: زى إيه كده؟..

قالت: ماحدش بيقوللى إنتى رايحة فين واللا جاية منين.. ماحدش سألنى مرة إنتى عاوزة الفلوس دى ليه.. ماحدش سألنى مرة مين أصحابك دول.. ماحدش عارف أنا فى سنة كام.. نجحت واللا سقطت!..

نسألها: ـ بنفس لكنتها الظريفة ـ ومامى؟..

قالت وقد استراحت تماما لنا بوصفنا من رفاق الماكس: كل واحد فى بيتنا بيعمل إللى هو عاوزه.. مامى عند صاحباتها.. فى النادى.. عند الكوافير.. بتشوف الأرض بتاعتها.. فى رحلة صيد فى البحر الأحمر!..

قلنا: طيب وأخواتك؟..

قالت: لسه صغيرين ومشغولين طول النهار بالمدرسين الخصوصيين.. وبالمذاكرة!!

** ملحوظة: نسيت أن أقول أن الفتاة جميلة.. بنت ناس.. ولكنه الجمال الضائع والوجه الباهتة ألوانه الزائغة عيونه.. المسهدة جفونه.. المصفرة شفاهه.. كأنها لم تأكل ولم تشرب ولم تنم عاما بحاله **

يسألها إسلام فارس: طيب وعرفتى الإدمان من امتى؟..

قالت: من ثالثة ثانوى..

يسألها: فين؟..

قالت: فى النادى مع شلة من الأولاد والبنات.. ومن ساعتها ما أعرفش أعمل حاجة إلا إذا أخذت حقنة الماكس!..

أسألها: مامى عارفة؟..

قالت: أيوه!..

قلت: وعملت إيه؟..

قالت: غلبت فى مصاريف علاجى عند دكاترة كبار محترمين فى البلد.. ودادى لما عرف بعت فلوس أكثر عشان أتعالج بيها..

قلت: وبعدين؟.

قالت: كنت باشترى بيها حقن.. لأن مافيش فايدة من العلاج!..

نسأل: ليه؟..

قالت: فى المستشفى كانت المرضات بيسربوا لى حقن الماكس بالفلوس لما كنت بأصرخ بالليل!..

قلت: جاية هنا لوحدك؟..

قالت: يعنى.. فى عربيتى الفيورا ومعايا البت المسلوعة اللى قدامى دى.. تشير إلى فتاة فى عود قلم الرصاص تلبس نظارة طبية وبنطلون جينز..والواد المكلبظ ده.. تشير إلى فتى قصير سمين غليظ الرقبة يقف خلفها فى الطابور ذى شعر أكرت قصير وكرش بارز مستدير يتدلى رغم حداثة سنه فوق بنطلون جينز ترابى اللون..

قلت لها: زمايلك فى الجامعة؟

قالت: أيوه..

أسألها: وفيه غيرك من الجامعة بييجوا هنا علشان الماكس؟!..

قالت: كثير.. من الجامعة.. ومن النادى كمان!..

جاء دورها انفتح شباك صغير فى حائط كبير خرجت منه رأس المعلم.. لا أحد يراه من العتمة.. صوته الأجش يسأل: طلباتك ياست هانم؟..

قالت: سرنجة ماكس لو سمحت!..

قال: فلوسك!..

قالت: جاهزة!.. مدت ذراعها اليسرى بالفلوس.. وذراعها اليمنى شمرتها إلى أعلى لتنغرس فيها حقنة المخدر!

....

....

انتزعنا المعلم من خلف الشباك بعد محايلات ومداولات.. ترك مهمة البيع لأحد أولاده.. انتحينا به ركنا فى زقاق كأنه حوش مقبرة.. وليس مكانا يسكنه قوم مثلى ومثلك.. يأكلون ويشربون ويتزاوجون وينجبون أولادا وبنات.. ويضحكون ويكركعون ليل نهار.. لماذا وكيف؟ لا أحد يدرى..

قلنا له: موش خايف تتكلم معانا: قال بلهجة أولاد البلد: وأخاف من إيه.. الدار أمان.. وأهو كلام طاير فى الهوا.. بالصلاة على حضرة النبى..

نسأله: أنت بتتاجر فى إيه؟

قال فى دهشة: أنا لا بأتاجر ولا حاجة.. أنا بس أساعد لوجه الله.. علشان الأولاد والبنات والشباب اللى زى الورد ده وشرفكم.. إذا مالقوش الصنف يقعوا من طولهم.. ويمكن يموتوا كمان!!

نسأل: وحد مات هنا؟

قال: كثير.. قبل الحقنة.. وساعات بعدها!

قلنا: وبتعمل إيه ساعتها؟

قال: وإحنا مالنا يابيه.. واحد طب ساكت فى الشارع قضاء وقدر واللا إيه؟!

نسأل: والطابور ده عاوزين إيه؟

قال: أغلبه حقن ماكس.. والباقى تذاكر هيروين!

قلنا: يعنى إيه؟

قال: يعنى تذكرة شم بودرة..

سألنا: الواحد يدفع كام؟

قال: حسب طلبه.. سرنجة المكس عشرين وتذكرة البودرة أربعين وحقنة البودرة مع الماكس مائة!!

أسأل: جنيه واللا قرش يا معلم؟

قال ضاحكا: إنت موش من البلد دى واللا إيه ياحضرة؟!

قلنا: بتكسب كثير؟

قال: ده رزق من عند ربنا.. بلاش مقاطعة!

نسأل: يعنى كام كده فى اليوم بالصلاة على النبى؟

قال: اللهم صلى عليك يانبى.. خمس تلاف.. سبع تلاف عشر تلاف.. حسب الشغل!

نسأل: طيب إزاى بتحافظ على النظام فى الطوابير دى؟..

قال: لما الناس تكتر.. عندى كلاب بلاك جاك بتحافظ على النظام تمام!!

قلنا: وبتشتغل كام ساعة فى اليوم قال: مابنقفلشى.. أربعة وعشرون ساعة فى اليوم.. الناس مابتبطلشى تيجى.. غلابة.. تعرف

ياحضرة لو جالى واحد عاوز حقنة وما معهوش ثمنها.. تفتكر أكسفه.. وأقول مافيش.. أديله ده بنى آدم زينا برضه!!

قلنا: والله فيك الخير يامعلم!

نسأله: وامتى تقفل؟

قال: لما الصنف عندنا يخلص!

نسأله: طيب والبوليس مايعرفش إن فيه طوابير ناس بتأخذ ماكس وبودرة هنا.. يعنى موش خايف لا يمسكوك؟

قال: ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم.. ربنا هو إللى بيستر.. هو إحنا بنسرق؟

قلنا: إنت تساعد على تدمير الناس.. وهدم البيوت؟

قال: وحد قال لهم ييجوا لحد عندنا.. امنعوهم أنتم الأول!!

نسأل: عندك أولاد؟

قال: خمسة.. ثلاثة أولاد واثنين بنات!

قلنا: ما إنتش خايف إنهم يدمنوا زى زباينك دول؟

قال: عجان السم بيدوقه!!

نسأل: إزاى؟

قال: الخير كتير.. الأولاد برضه بيضربوا ماكس.. لكن البنات طاروا لبيت العدل!

نسأل: هل دخلت السجن من قبل؟

قال: ولسه طالع منه!

نسأل: بتهمة إيه؟

قال: تعاطى!

نسأله: ولو اتمسكت.. ودخلت السجن.. تبطل واللا ترجع لزباينك تانى؟

قال: وهو أنا لى حد غيرهم.. أمال أعيش إزاى ياحضرة.. دانا مصروفى اليومى على مزاجى لوحدى موش أقل من ألف جنيه!

....

....

فى أمريكا يطلقون على الإدمان بغموضه.. بمخاطره.. بآثامه.. بآلامه.. «طائر الليل الأسود».. فهو الذى يحمل العذاب والموت علىَ جناحيه ويطوف بهما على المدمنين الذين سقطوا فى حفرة الإدمان.. ولقد جمعنا طائر الليل الأسود هنا.. إلى كل من عضه الإدمان بنابه الأزرق داخل المصحات، أو خلف أسوار السجون.. وربما تحت شجرة فى ناد.. أو حتى فى سهرة تجمع رفاق السوء صحبة ومعهم شيطانهم!

كان متكوما متكورا على نفسه فى ركن زنزانة داخل سجن الحضرة بمدينة الاسكندرية كأنه قنفذ فى غابة تموج بالوحوش والكواسر.. وهو فى ركنه البعيد خائف مرتعد من طول ما تألم، من فرط ما لاقى، من كثرة ما شقى وتعب وتمزق..

قال له مرافقنا ضابط الشرطة: قوم ياعم مجاهد ـ وهذا الإسم من عندنا ـ تعالى إحكى حكايتك.. بطاقته العقابية تقول: إنه مسجون هنا بتهمة التعاطى.. أربع سنوات سجن ثم يعود إلى أشجار الطريق لتظلله من جديد..

من تجاعيد وجهه وذقنه الذى لم يمر عليه موس الحلاقة ربما من ساعة دخوله إلى هنا ومن شحوب سحنته وعتامة نظراته القلقة.. يمكن أن تعطيه من عندك عمراً تجاوز الستين، إلا أنه قال لنا: أنا عندى إثنين وأربعين سنة ابس!

هو يحكى.. بين دوع تنهمر حينا وتتحجر فى مقلتيه حينا آخر: أنا كنت صاحب أكبر معرض سيارات فى إسكندرية وكان عندى مكتب استيراد وتصدير وثروة فى البنك أكثر من مليون جنيه فلوس سايلة غير العقارات والسيارات والذهب وربنا رزقنى بأربعة أولاد مافيش أجمل ولا أذكى ولا أظرف منهم.. وزوجة صالحة قال عنها الله أنها من رزق الرجل الصالح.. كنت كالعصفور الطليق غنى وجاها وصحة وأولادا طيبين.. حتى تسلل الإدمان إلى حياتى.. فى ليلة دعانى أحد أصدقاء السوء إلى جلسة «ظرف وأنس وفرفشة» كما أطلق عليها.. وهناك عرفت الداء الذى لا دواء له.. عرفت تذكرة الهيروين.. سحبت بأنفى شمة من هذا المخدر اللعين، ومن ليلتها صرت عبدا له.

قلنا له: وطارت المليون جنيه!

قال: بالضبط.. ومعاها المعرض والمكتب ودهب المدام والبنات والعربيات.. والصحة كمان!

يبكى ندما ودما.. وعبارات ألم تنغرس في صدورنا: تصوروا بعد ما بعت كل حاجة.. حاولت أن أبيع ابنتى الكبيرة!

قلنا فى هلع: إزاى!

قال: قلت لواحد صاحبى إتجوزها أو حتى خدها وادفع لى ثمن الهباب اللى بأشربه كل ليلة!

قلنا: وأمها ماذا فعلت؟

قال: هى التى أنقذتها من بين يدى.. وبعدين مسكونى وفى جيبى ٤ تذاكر هيروين.. وأدينى هنا بأدفع ثمن جريمتى!

قلنا: وأولادك وبناتك؟

قال: لهم رب اسمه الكريم!

....

....

التقينا بها داخل أكبر تجمع للجريمة الذى اسمه سجن القناطر الخيرية..

والقناطر الخيرية بلدى ومرتع صباى.. ولاأدرى لماذا زرعوا هذا السجن الذى يخفى خلف أسواره الشر والدم والقتل وسط أجمل بقعة على ضفاف النيل ووسط الزهور.. وسبعة أنهر.. وعشر قناطر أقدمها عمرها ١٥٠ سنة.. وأكبر مسطح من الخضرة والأشجار والحدائق فى بر مصر كله؟..

قدموها لنا بوصفها واحدة من اللاتى عضهن الإدمان بنابه الأزرق.. حتى قادها إلى هنا.. وجه جميل دقيق الملامح..

سألناها: اسمك إيه؟..

قالت اسمى أمل..

قلنا: بقالك قد إيه مدمنة؟..

قالت: وأنا عمرى ١٤ سنة!..

قلنا: وعندك كام سنة دلوقتى؟..

قالت: ٢١ سنة!..

قلنا: وعرفتى طريق المخدرات ليه؟..

قالت: مافيش سبب معين.. لكن يمكن لو حكيت حكايتى. تعرفوا ليه أنا سلكت الطريق ده!..

قلنا: إحكى يا أمل؟..

قالت: أنا لم أكمل تعليمى.. كنت تلميذة فى مدرسة السنية بالسيدة زينب.. وطلعت من المدرسة ماكملتش!..

قلنا: ليه؟..

قالت: تعمل إيه لزوجة الأب بقى.. مابتقبلنيش!..

قلنا: وبابا؟..

قالت: مسافر دايما وسايبنى لها!..

قلنا: وماما؟..

قالت: إتجوزت واحد تانى!

قلنا: وإنتى!..

قالت: .. كنت بأهرب من البيت بسبب قسوة مرات أبويا.. وفى الشارع عرفت البودرة!..

قلنا: كنتى بتشمى؟..

قالت: أيوه.. ابتديت بخط هيروين.. أشمه فى اليوم.. ربع جرام.. لحد ما وصلتُ لجرام كامل فى اليوم!..

قلنا: بكام؟.. [قالت: يعنى حسبة ٨٠ جنيها فى اليوم]..

قلنا: منين..؟

قالت: من عند الله!..

قلنا: مديتى إيدك طبعا!..

قالت: ماخليتش سرقت.. نصبت.. عملت كل حاجة وحشة عشان الجرعة.. عارف يعنى إيه عملت كل حاجة وحشة عشان الهباب ده؟..

تبكى بحرقة.. تركناها تبكى ندما ودما.. قدمت إليها ماجدة شرف منديلا ورقيا تمسح دموعها وأحزانها..

قالت أمل وعيونها بحيرة دم وألم: بابا حاول يعالجنى وبعتنى بره أتعالج فى فرنسا.. وصرف دم قلبه.. لكن مفيش فايدة..

قلنا: طيب وفى السجن كنتى بتعملى إيه؟..

قالت: كنت بأموت.. دخلت مستشفى السجن عشان أتعالج.. والحمد لله دلوقتى أحسن.. السجن ربانى صحيح.. هو العلاج الوحيد للإدمان.. مافيش غيره!..

قلنا: وإنتى جيتى السجن هنا ليه؟..

قالت: تهمتى إتجار!..

قلنا: إزاى؟..

قالت: أصلى إتجوزت التاجر إللى بأشم عنده كل يوم.. أرخص.. وأسهل بدل من الجرى فى الشوارع!..

قلنا: وهو فين دلوقتى؟..

قالت: فى سجن الرجال جنبى هنا!..

قلنا: ليه؟.. [قالت: بتهمة الاتجار فى المخدرات]..

قلنا: وإنتى أخدوك معاه؟..

قالت: لا.. الزباين.. بعد ما دخل جوزى السجن.. قالو لى.. إحنا عاوزين الصنف.. اشتغلت فيه!..

قلنا: عندك أولاد؟..

قالت: لا.. الحمد لله وإلا كنت بكيت عليهم دم موش دموع!..

قلنا: وأولاد الناس إللى بتقتليهم كل يوم بالمخدرات إللى بتقدميها لهم؟!..

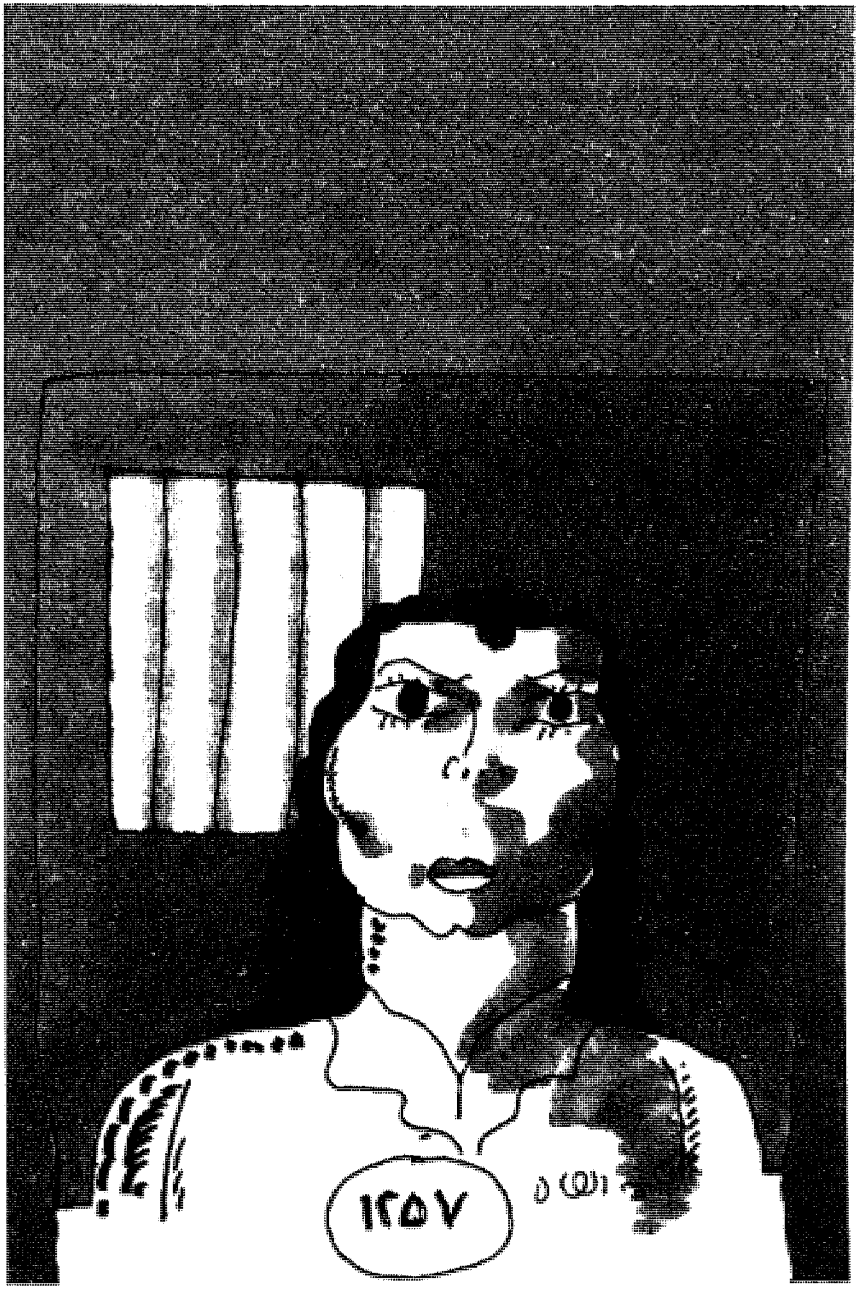
قالت فى ندم: الله يجارى إللى كان السبب!..

....

....

تلك هى تجربتى برفقة طائر الليل الأسود فى حوارى وأزقة بولاق والبساتين والجيارة والباب الأخضر مع أوراق الربيع المصرية الخضراء التى تتساقط فى ظل خريف الإدمان ورقة من بعد ورقة..

وتلك هى تجربتى مع المآسى التى تتحرك على قدمين داخل مصحة لعلاج المدمنين أو خلف أسوار السجون.. □



١٢٥٧

٦

فحيح الأفعى

* ماذا يحدث إذا شاء قدر إنسان أن يذهب إلى وكر الأفعى يتلمس بيديه ملمس جلدها الناعم الأملس، وينجو بقدرة قادر من لدغاتها القاتلة؟

هل سمع أحدكم فحيح الأفاعى، وهى تتحرك من حوله بسمها وشرها ونابها الأزرق الذى يسحب فى غمضة عين أنفاس الحياة من صدر الإنسان؟

لقد عشت تجربة مثيرة مثيرة.. ذهبت فيها طائعا مختارا إلى أوكار الأفاعى.. امتلأت أذنى بفحيحها.. وعينى برؤوسها التى تنذر بالشر والدمار وتحمل الموت لكل من يقترب منها أو يواجهها.. ودار بينى وبينها أغرب حوار من نوعه.. ولكن فى حماية بوليسية كاملة.. فلست

أنا داريوس البطل الأسطورى الإغريقى الذى واجه التنين الأسود صاحب الرؤوس السبعة التى تطلق النار والشرار.. ولكنى اقتحمت أوكارها من خلال طابور عسكرى.. فى واحدة من حملات الشرطة المصرية للإمساك بها وإبعاد شرها وأذاها عن كل المصريين..

والأفاعى التى دخلنا جحورها عنوة واقتدارا.. لم تكن تزحف على بطنها فى جنح الظلام.. ولكنها أفاعى بشرية تمشى على قدمين.. بوجهها السافر الكالح الذى لم يعد يخاف التسلل إلى دروب حياتنا فى وضح النهار أو فى عتمة الليل.. لم يعد يهمها شمس أو قمر.. نور أم ظلمة.. تبيع السم لشباب أخضر صغير.. يأتى إليها بإرادته لكى يحصل على نصيبه من لدغة الثعبان.. فى صورة عصرية متطورة.. شمة هيروين تذهب من الأنف إلى المخ من خلال ورقة ملفوفة من فئة الدولار.. أو إبرة من حقنة بلاستيكية تنغرس فى عروقه بالماكس فورت!

حملت هموم أمة بحالها تصارع تنين الإدمان.. قبل أن يلتهم حصاد ٥٠ قرنا من الحضارة والعلم والفن والانتصارات والصمود فى وجه المحن والآهات.. وقبل أن يضيع كدخان فى الهواء أبو الحضارة ومعلمها الأول.. الإنسان المصرى..

هموم تحولت إلى أنفاس تتردد فى صدرى.. وأرقام وحقائق موجعة تصرخ من فرط الألم فى رأسى.. وأنا أشد الرحال فى ركاب الشرطة المصرية وهى تداهم فى غير رحمة أوكار الأفاعى البشرية!

كانت الدنيا صيام.. ونحن فى ظل شمس عفية.. فتية وقد خرج المصلون بعد أداء صلاة الظهر جماعات ووحدانا من أبواب المساجد التى نمر عليها ونحن ننطلق للحاق بهجمة الشرطة المصرية على أوكار الأفاعى البشرية.. رحت أقرأ بصوت غير مسموع هذه الدراسة التى تقطر المأ ولدما وإدمانا من دوسيه الإدمان داخل رأسى.. الدراسة تتعلق بالذين يدقون أبواب الأفاعى كل يوم من شباب الجامعات المصرية.. والذين شاهدتهم بعين الأسى والألم يمدون أذرعتهم وأنوفهم فى ضراعة وتوسل من فرط الوهن والسقوط هذيانا وضعفا وإدمانا..

لقد اتضح أن هناك ٣١٪ حالات إدمان داخل بعض الجامعات و ١٧٪ فى البعض الآخر و ٤٪ فى الباقى.. بمتوسط ٢٠٪ حالات إدمان فى الجامعات المصرية..

واتضح أن ٤٠٪ من حالات الإدمان.. إدمان هيروين.. و ٦٠٪ حشيش وأفيون.

واتضح أن ٥٢٪ من المدمنين من الطلبة.. و ٤٨٪ من الطالبات!! [يعنى تقريبا «النص بالنص» وهو مؤشر خطير على حد تعبير الدكتورة ألفت مهران صاحبة الدراسة التى تنزف حزنا وكآبة!

مازلت أعيش مع أرقام الحزن والألم والحسرة على ٢٠٪ من أولادى وأولادك.. بناتى وبناتك تحت قبة الجامعة المصرية.. مدمنون.. الله يرحم أيام زمان وليس هذا الزمان ببعيد.. كنا لا نجرؤ على تدخين سيجارة ونحن فى الجامعة.. وكنا نختفى داخل الحمام مع دخان

سيجارة مسروقة.. حتى لا يعرف الأب عن إثمنا شيئا.. واليوم من علامات العز.. وربمامن علامات الساعة أن يفخر شباب غنى ـ لا يعرف كيف ينفق مصروفه الكبير بأنهم مدمنون!

أيقظنى من سرحانى الطويل مع همنا الأكبر أمل هذه الأمة التى نرجوه من الدنيا وهو يتبخر بالإدمان من بين أيدينا.. مشهد سيارات الأمن المركزى على باب مبنى إدارة مكافحة المخدرات بالعباسية.. قلت لمرافقى العميد عصام السرساوى قائد الحملة وقتها قبل أن يصبح رئيسا لإدارة مكافحة المخدرات: إيه الحكاية؟..

قال: تقصد عربات الأمن المركزى.. إنها تقف غير بعيد عن الموقع الذى نهاجمه.. وتستدعينا باللاسلكى إذا لزم الأمر.. ووقعت مقاومة أو اشتباك مسلح مع تجار المخدرات!!

قلت: يعنى ممكن تحصل مواجهة مسلحة؟

قال: ممكن طبعا.. ولكن لا تخف نحن مستعدون لأى طارئ!

....

....

الساعة الواحدة والربع.. الشمس لا ترحم صيامنا وجهادنا الأكبر من أجل خلاص مصر من براثن تجار الموت!

العميد عصام السرساوى فى عربة بوكس تيوتا يقود طابور الحملة ومعه اللاسلكى.. العربة التالية له.. مرسيدس حمراء آخر موديل يركب إلى يمين السائق اللواء السيد غيث مدير إدارة العمليات وقتها

وصاحب الدعوة لنا.. ونحن داخل العربة الثالثة.. البيجو البيضاء. أنا إلى جوار السائق وعلى المقعد الخلفى الزميل عصام مليجى الذى يعيش معه قراء الأهرام مواجهات الشرطة مع تجار المخدرات.. والمصور الشاب محمد وسيم.. والرسام فرج حسن حفيد زهران بطل دنشواى.. ثم طابور طويل من عربات المرسيدس والجولف والـ بى إم دبليو..

أسأل عصام مليجى: إيه حكاية العربيات الآخر موديل دى؟..

قال: دى كلها مصادرة.. كانت لتجار المخدرات وضبطت معهم وهم يهربون سمومهم!!

....

....

طابور الحملة البوليسية يخترق شوارع القاهرة كأننا طابور من فرقة الجندرمة من جنود بونابارته على حد تعبير الجبرتى ـ متخفيا بعباءة الصيام وبحركة الحياة اليومية فى عز «نفحة القيالة».. إلتفت إلى قائد الحملة وهو يقود حملته بجهاز اللاسلكى قائلا: اسمك سمعته من قبل فى عالم مكافحة المخدرات!..

قال: بل سمعت عن والدى اللواء إبراهيم السرساوى مدير إدارة مكافحة المخدرات.. لقد تربيت أنا من صغرى داخل هذا المكان!!

قلت: إن لم تخنى الذاكرة.. أليس والدك هو صاحب قضية زوزو ماضى الشهيرة؟

قال: نعم.. وأنا صاحب قضية الفنانين الأخيرة..

تحاصرنا زحام وأنفاس الخلق كأنهم نمل سيدنا سليمان ونحن نخترق باب الشعرية.. ثم ننحرف يسارا إلى الحسينية.. فى منتصف شارعها الرئيسى يتوقف الركب البوليسى فجأة.. ويهبط جنود الأمن المركزى بردائهم الأسود ووجوههم الجامدة.. الكل يجرى.. وجرينا خلفهم.. طلقات نارية فرقعت فى الجو.. قلت فى نفسى:.. إنهم يتبادلون إطلاق النار مع الأفاعى البشرية من تجار الوت.. حاولت أن أختفى داخل حارة جانبية حتى يسكت صوت الرصاص.. إلا أن ضابطا من ضباط الحملة قال لى وهو يسبقنى عدوا: إنها طلقات للإرهاب فقط.. تعال معى..!

انحرفنا يسارا.. أمام منزل من ثلاثة طوابق له بوابة حديدية مغلقة بقفل ألمانى «مسوجر» من الخارج.. مازال طلق النار من المدافع الرشاشة مستمرا.. الضباط تسلقوا أسطح العمارات المجاورة.. أمة لا إله إلا الله تجمعت من حولنا.. تفرقت فى لحظات بعد شخط ونطر من ضباط الأمن المركزى الذين صنعوا منطقة خالية من البشر من حولنا.. النساء فى البلكونات والشبابيك تدلين بفضول من كل ناحية وتغلق البلكونان والشبابيك إثر دفعات من رصاص وصرخات من مدافع وأفواه ضباط الحملة!!

يصرخ اللواء السيد غيث: شغل المنشار ياعسكرى!..

يجرى العسكرى حاملا منشارا كهربائيا يرسل فيشته بسلكها الطويل إلى داخل شقة أرضية مفتوح شباكها.. فى لحظات تتحرك عجلة المنشار لنشر القفل المسوجر.. فى الوقت الذى دخلت المشهد فرقة الكلاب

البوليسية.. جنديان يمسكان بلجام خمسة من الكلاب المدربة.. التى تقف فى تحفز أمام الباب الحديدى الذى لم يفتح بعد، أسأل مدربها الشاويش عبد العاطى مشيرا إلى الكلاب: ودى بتمسك تجار المخدرات؟..

قال: لا. بتعرف فين المخدرات وتجيبها على طول!!.. أسأل: حشيش وأفيون وهيروين وماكس؟..

قال: حشيش وأفيون بس!..

قلت: طيب والهيروين والماكس؟..

قال: موش اختصاصها!..

انفتح الباب.. سكت المنشار الكهربائى.. توقف صوت الرصاص.. انطلق الجميع إلى داخل البيت القزم.. الكلاب أمامى تصعد السلالم الضيقة.. أنا من خلفها.. قلت فى نفسى: الكلاب تفسح لى الطريق وتهاجم أى معتد قبل أن ينقض علينا من عل!!..

حجرتان إلى اليمين وإلى اليسار.. تحولتا فى لمح البصر إلى أنقاض.. فرجال الشرطة يفتشون عن المخدرات.. فى الدور الثانى أمسكو بشاب صغير السن.. الرعب استقر وسكن وعشش لدهر بحاله فوق قسمات وجهه من فرط «خضة» الموقف!..

سألوه وهم يمزقون المراتب والمخدات إلى أشلاء من القطن الأسود والتراب بحثا عن المخدرات: بتعمل إيه هنا؟..

قال: بانضف البيت!..

قالوا: وساكك عى نفسك من بره بالقفل؟!..

قال بخبث: أصحاب البيت همه إللى حابسنى هنا عشان أنضف كويس!..

قالوا: مين المعلم بتاعك؟..

قال: معلم إيه يابيه.. أنا هنا أخدم وبس!..

الشاب ليس على لسانه إلا كلمات: والله أنا ماعرفش حاجة!

فرقة التفتيش داخل الحجرات وفوق الأسطح عادت دون أن تجد شيئا.. الضباط يضغطون بكل الوسائل على الشاب لكى ينطق.. نطق أخيرا.. قال لهم ربما ليخلص نفسه من الورطة التى أوقع نفسه فيها: البضاعة.. عند عبده بزارة!!

قال العميد عصام السرساوى: فين؟. قال المذعور الشاب: جنبنا فى درب السكاكينى!!

فى ثوان يتم إخلاء البيت المشبوه الذى يتخذه تجار السوم البيضاء وكرا لهم فى الحسينية.. الموكب البوليسى يتوجه مع الشاب إلى منزل عبده بزارة..

الناس على الصفين يحيون بعيونهم وقلوبهم وايديهم تدخل الشرطة لإنقاذهم من زبانية مثلث الشيطان.. قالت بنت بلد تضم شعرها داخل منديل أحمر بأوية صفراء فى عبارة جريئة مثل عيونها التى

لاتستقر على حال: أنتم فين من زمان.. دول خلصوا على شباب الحتة ياضنايا!!..

وقالت أم تحمل رضيعا فوق كتفيها وتمسك بطفل آخر في يدها: دول زى عفاريت الليل.. فى كل حتة.. لكن لما تيجى تمسكهم فص ملح وداب!..

وقال شاب صغير يركب دراجة!.. ياخويا التجار قدامهم.. وماحدش شايفهم!!..

يلتفت إليه أحد الجنود: فين ياشاطر؟!..

يهبط علينا من أحد الشبابيك صوت امرأة قرشانة انفرطت أسنانها: بس.. ياواد يا إبن الملطوشة!.

نسينا صيامنا.. والحر.. وزحام الخلق، ونحن خلف الشاب المذعور فى طريقنا إلى معلمه الأكبر.. عبده بزازة..

أمام بيت من خمسة طوابق.. وقف الشاب وقال أن معلمه هنا فى هذا البيت.. قبل أن نصعد ومن بلكونة فى الدور الثالث خرجت سيدة بنت بلد ترتدى منديلا أخضر فوق رأسها.. وأطلت علينا لتملأ الحارة وحى الحسينية كله بصرخاتها: عبده مات.. ياخلق هو.. ياناس عبده مات!!

انزرع الصمت فى المكان كله.. لقد أصبح الموت هو سيد الموقف.. إلا من صرخات الزوجة الملتاعة فوق رؤوسنا.. قال أحد الضباط: دى لعبة.. بنت الأبالسة عملاها عشان مانفتش البيت!!

لم أصعد.. صعدت فتاة شابة كانت تقف مع الواقفين لتعود بدموعها على خدها: الراجل مات بحق وحقيقي..

سألنا: إزاى؟..

قالت: من الخضة.. كان عيان ولسه راجع من المستشفى.. وقلبه ما استحملش كبسة البوليس!!

يبكى الشاب الأروبة رحيل معلمه عن الدنيا ولكن من غير دموع.. مجرد أنين أجوف.. قلت فى نفسى: ياخويا السيما غايبة عن الناس دى إزاى؟

يقودنا فى النهاية إلى عمارة ثالثة فى الشارع الرئيسى للحسينية.. العمارة مكونة من ستة أو سبعة أدوار.. لم أصعد وقفت مع الناس وفريق الكلاب البوليسية فى انتظار إشارة الصعود من فريق الضباط والجنود الذين تدافعوا على السلم الطويل.. الشاويش عبد العاطى يغلق الشارع رعبا بكلابه: هارون وصخر وفيكتور ومارك وبلاك جاك.. التى تشم الحشيش والأفيون.. وتخرجها من مخابئها..

أسأله: وليه ماعندناش كلاب مدربة على البودرة؟..

قال: عشان ماتدمنش وتموت مننا!!

قلت: إزاى؟..

قال: الحشيش والأفيون مايعملش إدمان للكلاب..

قلت: طيب فيه كلاب مدربة على كشف البودرة؟..

قال: فيه لكن ماعندناش لأن عمرها قصير جدا!

تستنجد بى سيدة عجوز تريد أن تعبر الشارع تصورت أننى أحد ضباط الحملة.. قلت لها: تعالى معايا..

قالت: بس خايفة من الكلاب.

قلت لها: ياأمى دى كلاب طيبة وبنت حلال.. لابتهش ولا بتنش!

يهبط الرجال وبين أيديهم أول صيد ثمين.. أحد المعلمين الكبار الذين يتاجرون بقدر هذه الأمة ومستقبلها.. ويدمرون فيها الخير والحب والعافية.. كان هادئا لا تعرف من قسمات وجهه ماذا يدور داخله.. كان يلبس جلبابا من اللينو الأبيض وطاقية من نفس قماش الجلباب.. أخذوه سيرا على الأقدام مع الشاب المذعور إلى البوكس..

أسأل عصام السرساوى: طيب ده المعلم.. أمال فين البضاعة؟

قال وهو يفتح يديه: ها هى أمام عينيك!!

نظرت فوجدت لفة تضم عددا من تذاكر البودرة.. وحقنا بلاستيكية لحقن الماكس فورت..

أسأل: لقتوها فين؟

قال: فوق فى شقة المعلم أبو جلابية بيضة.. وفى البيت الأولانى اللى كان الواد المخربش مستخبى فيه.. عشان لما البوليس يهجم يرمى المخدرات من فوق على سطوح الجيران!

قلت له ضاحكا: لكن على مين!!

. . . .

. . . .

انسحبت الحملة بصيدها الثمين.. وسط تضرعات الناس الطيبين: ياريت تيجوا كل يوم.. ماتغيبوش علينا كتير!

عاد الزحام والضجيج إلى الشارع بمجرد عبورنا.. كموج البحر يندفع إلى الأماكن التى خلت.. الموكب ينطلق مرة أخرى إلى وكر آخر من أوكار الأفاعى البشرية..

أسأل اللواء السيد غيث: على فين؟

قال: زى ما تحب.. أنت تقول إن البيع علنا على عينك ياتاجر!

قلت: الدنيا صيام والناضورجية فى كل مكان.. وأنتم أدرى منى بأوكار هذه الأفاعى!!

قال: سنذهب إلى قايتباى!.

الموكب يخترق الدراسة ثم ينحرف إلى طريق صلاح سالم.. نقتحم المقابر.. نحن الآن داخل شارع فى قلب أكبر جبانة ربما على وجه الأرض اسمه شارع الأمراء كل المقابر على الصفين لأمراء ووزراء وباشاوات وبكوات وأميرالايات على حافة المقابر. أسأل نفسى: لماذا ترتبط المقابر دائما بالبحث عن تجار المتعة الحرام!.. وقف الموكب فجأة وانطلق الجنود والضباط وفريق الكلاب البوليسية ونحن من خلفهم

صعودا إلى بيت يعرفونه جيدا.. ندخل شقة ضيقة لانجد فيها إلا أما كبيرة فى السن وابنتها التى تحمل طفلا رضيعا على صدرها.. صرخت فى وجهنا: إيه.. إحنا ماعندناش حاجة.. إحنا بنشتغل فى الجبل.. بنقطع حجارة؟. سألوا الأم بينما كان الجنود يخرجون أحشاء المراتب بحثا عن المخدرات: وابنك فين؟.. قالت: ابنى أحمد نايم فوق ياحبة عينى!

نصعد كلنا بينما يعلو صوت الأم: يارب استر.. يارب!

الشقة فوق.. العفش فيها أجمل وأنظف وأجدد. تليفزيون ملون.. ثلاجة عشرة قدم.. دولاب زجاجى مملوء بالصينى.. حجرة نوم جديدة المراتب والملايات.. المطبخ الصغير فيه بوتاجار مصانع بفرن.. قابلنى داخل الشقة التى تحولت إلى مولد سيدى الإنبابى فى بلدنا.. بكاء طفل صغير حائر مذعور يتعلق برقبة رجل ربعة وجهه ضخم ذو شنب كثيف وشعر أكثر كثافة.. ملبد لم يدخله مشط منذ أكثر من عام.. أسأل: من هذا الطفل؟..

ينطق الرجل الضخم: دا ابنى مابيسبنيش أبدا!..

يهزه أحد الضباط يا ابن العفاريت الزرق.. سيب الواد يروح لأمه تحت!..

قال: أمه.. يابيه غضبانة وسايبانى!..

قال الضابط: من عمايلك السودة!..

ينظر إلى الضابط: أصله تاجر مخدرات.. ولسه طالع من السجن.. ورجع تانى يتاجر فى الصنف!

تحمل ماجدة شرف الطفل الباكى من بين ذراعى أبيه تاجر المخدرات الذى لم يرحم شباب هذه الأمة.. وأطفالا أصبحوا بلا عائل.. بعد أن لدغهم ثعبان المخدرات فى مقتل.. يصل الطفل إلى حضن جدته التى تصيح فينا: داحنا يابنى غلابة.. إحنا موش لاقيين كيلو لحمة.. تعرف حانفطر بعد صيام إيه النهاردة؟.. كرشة وفشة ولحمة راس!!

بخلاف أحمد هذا كان هناك فى الشقة أبوه مشلول بذراع واحدة.. وزميل له هارب من حكم بالسجن فى قضية تجارة مخدرات..

فرقة التفتيش تقلب الشقة رأسا على عقب.. كل شئ يفتح.. يمزق.. يكسر..

أسأل: لماذا كل هذا؟..

قالوا: لأن المخدرات هنا.. فى أى مكان ولابد من العثور عليها!.. «لأنها فلوس حرام من دم الناس..

وسط الضجيج والخبط والرزع أسأل أحمد صاحب الشقة: ليه رجعت تتاجر فى البودرة والماكس؟..

قال: يابيه إنا مدمن.. دا حتى باين علىّ.. أنا باخد ماكس وكنت قبل كده باشم بودرة!..

يضع عصام السرساوى أمام عينيه سرنجات الماكس فورت التى عثر

عليها الجنود فجأة داخل دولاب الملابس فى حجرة النوم قائلا: ودى برضه عشان مزاجك واللا عشان التجارة؟.

ينسحب الموكب من حيث جاء ومن خلفنا موجة من الصرخات والتضرعات التى لا تفيد، أطلقتها الأم وابنتها.. مضيفا إلى صيده ثلاثا من الأفاعى البشرية وغنائم من المخدرات قوامها سرنجات الماكس وتذاكر البودرة اللعينة!

....

....

مازال أمامنا بقية من ساعات الصيام.. افترقنا ثلاث فرق.. ذهبت مع اللواء السيد غيث والعميد عصام السرساوى إلى محطتنا الأخيرة فى يومنا الطويل..

نحن الآن داخل درب الغايشة.. فى بولاق..

الدرب سد.. البيوت تعانى من فقر دم مدقع. أمام باب خشبى توقفنا كلنا بسلاحنا وجنود الأمن المركزى وكلابنا البوليسية.. خرجت من الجحر السكنى سيدة صفراء الوجه ربما من الرعب وربما من عذاب الضمير..

قالوا: هذه هى شادية واحدة من اللاتى يغرسن السموم فى عروق الشباب الصغير! لم تكن وحدها كان معها رجل رث الثياب والهندام والهيئة..

قالت إنه أخوها حسن.. نجار يعطيها ثلاثة جنيهات كل يوم من عمله

لكى تعول خمسة أطفال من زوجها تاجر المخدرات الذى يمضى خلف الأسوار عقوبة سجن عشر سنوات!

دخلت الجحر الذى تعيش فيه شادية فى درب الغايشة قبل أن تدخل فرقة التفتيش.. كل شئ عصرى موجود هنا.. الثلاجة.. التليفزيون.. البوتاجاز.. سرير فى الداخل وكنبتان بلدى.. بعد ربع ساعة خرجت الفرقة.. كل شئ تحول إلى حطام وبقايا.. لم يعثروا على مخدرات. فقط طبنجة قالت عنها شادية: إنها تخص أحد أقربائها!!

شادية وجهها جامد بلا أى تعبير..

أسألها: ليه بتتاجرى فى المخدرات بعد مادخل جوزك السجن؟.. هى مصرة على الإنكار..

قالت: أبدا دانا غلبانة باجرى على كوم لحم.. وأخويا بيساعدنى!

ويحمل البوكس شادية وأخاها حسن.. إلى مصيرهما المحتوم!

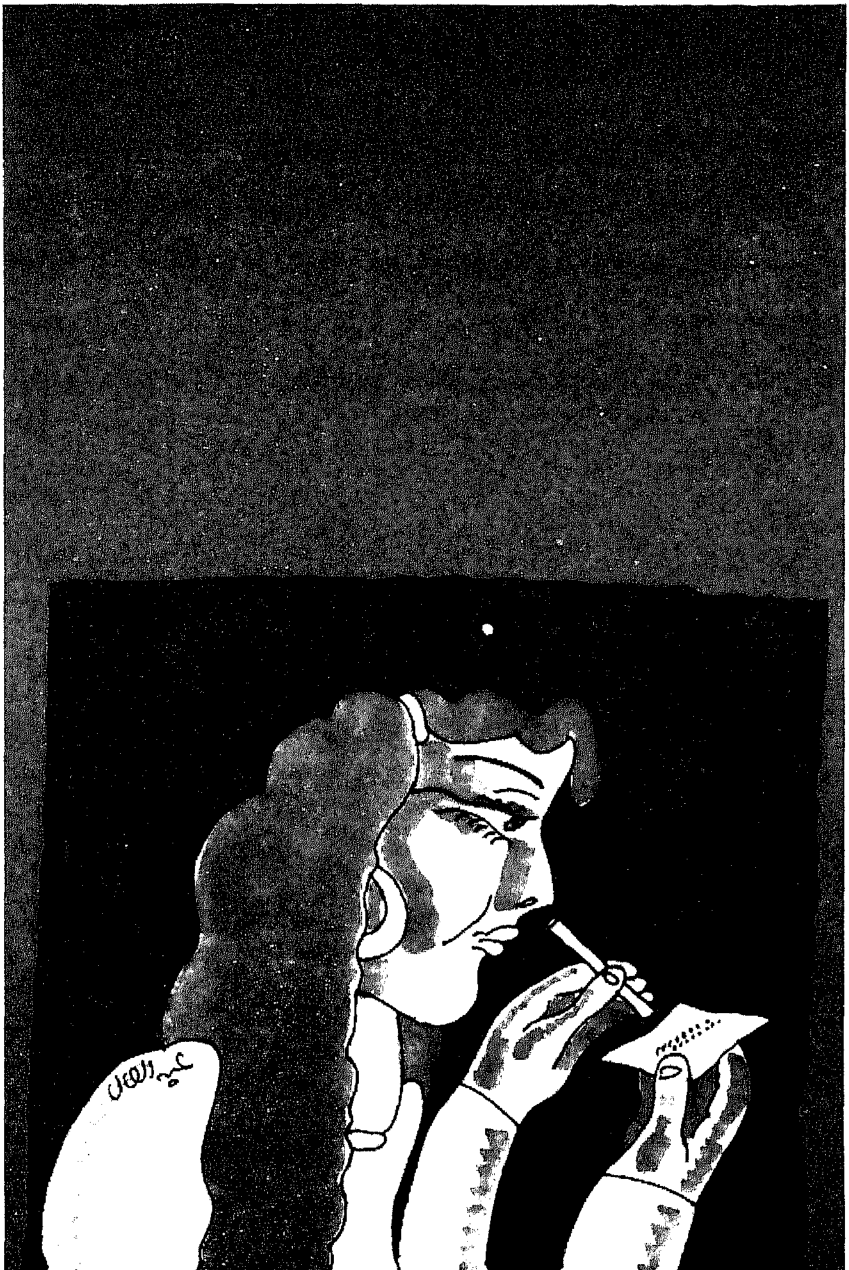
الخلق من حول درب الغايشة.. كأننا فى يوم الحشر.. يتحرك الموكب.. قلت للواقفين والجالسين: السلام عليكم.. قالوا كلهم فى نفس واحد: سلام ورحمة الله.. الله يقويكم.. أيوه كده الهمة.. ماتنسوش تيجوا بعد الفطار!

....

....

ولكن هل بسقوط بضعة عشر رأسا أو حتى خمسون من رؤوس الأفاعى.. نكون قد طهرنا مثلث الشيطان فى بلدنا؟

إن للأفاعى أذنابا وذيولا تمتد إلى كل ركن فى حياتنا تدمر ماشاء لها التدمير.. ومازال فحيح الأفاعى.. نكاد نسمعه ونشعر بلسعات أنفاسه السامة من داخل جحورها.. فى قلب القاهرة.. ومن خلف أسوار السجون! □



٧

الخروج من نفق الشيطان

* مازلنا نمشى بأقدامنا داخل نفق الأحزان المصرية.. الذى يحرسه تنين أسود بسبعة رؤوس تنفث كلها نارا وسعيرا.. وكأنه تنين أسطورى خارج لتوه من أساطير الأغريق الأقدمين..

وأنا بالطبع لم أقابل هذا التنين المدمر كما قابله وحاربه وانتصر عليه فى أساطير سوفوكليس البطل اليونانى داريوس.. ولكننى قابلت واحدة من ضحاياه التى أمسك التنين برقبتها وامتص دمها وتركها مجرد حطام إنسان..

هل عرفتموه؟

إنه تنين الإدمان الذى أمسك برقاب ١٧٪ من شباب مصر المتعلم فى الجامعات وما بعد الجامعات.. ويلتهم من دم قلبنا نحو ٤ مليارات جنيه مصرى هى حجم تجارة المخدرات فى مصر ـ كما تقول تقارير منظمة

مكافحة الإدمان الدولية فى واشنطن ـ وهذه المليارات الخمسة لو صرفناها على تشغيل هذا الجيش من الخريجين الذى مازال يجلس منم نحو ٤ ملايين خريج وخريجة تحت شجرة الأمل بلا عمل.. لوفرنا لقمة عيش شريفة وبابا للرزق لنحو ربع مليون خريج منهم باعتبار أن كل فرصة عمل تتكلف نحو ٢٠ ألف جنيه وهؤلاء الخريجون شقوا طويلا وشقى الأهل معهم حتى حصلوا على الشهادة ومازالوا فى انتظار خطاب القوى العاملة الذى لن يجئ.. وإذاجاء فبعد طلوع الروح فى انتظار دام ثمانى أو تسع أو عشر سنوات.. كما يحدث الآن!

لا تسألونى عن اسمها ومتى قابلتها.. لأنها الآن بوصفها تلميذة لشيطان الإدمان وواحدة من ضحاياه.. تقبع خلف أسوار العقوبة.. ولكن يمكن أن أقول أننى قابلتها مع فريق «أجراس الخطر» الذى كان يهز الوجدان المصرى من جذوره ساعة إذاعته ظهر كل يوم..

....

....

بعيون جفت فيها الدموع. وجفون مسهدة، ربما لم تنم العمر كله.. ولكنها لا تخفى جمالا موروثا تكاد تنطق به العيون الكحيلة بدون قلم أو مكحلة.. فالجمال لا يذهب ولا يرحل أبدا ولا يزول.. إلا من عدو واحد للجمال ولكل امرأة فى كل عصر وكل أوان اسمه السنون وريشته التجاعيد..

ولكن هذا الوجه الصبوح، لم تتسلل إليه بعد خطوط السنين، فصاحبته مازال أمامها العمر كله.. فهى لم تتعد بعد الخامسة والعشرين

وإن كانت أمامنا الآن تبدو وكأنها تحمل فوق كتفيها أحمال ألف سنة مما نعد ونحسب.. قالت لنا المليحة الحزينة: لست راضية.. ولست نادمة.. فأنا ضحية وجلادة فى نفس الوقت.. أنا إنسانة تعيسة فليس هذا مكانى وليس هذا موطنى خلف أسوار قضبانها ترسم خطوطا بالطوق فوق عيونى.. لأرى الدنيا من حولى صورا مرسومة بخطوط طولية. حتى الأشجار والأطفال والشمس والقمر مجرد لوحات فوق كراسة رسم لطفل صغير أمسك بقلم أسود وسطر فوقها خطوطا سوداء بالطول تكاد تخفى أكثر مما تظهر.. وإذا كان هذا هو قدرى، فأنا صانعته مستدركة - آسفة أنا فقط أنفذ الأوامر القدرية وأشارك أحيانا فى صياغتها وتنفيذها.. ولكنى مذنبة.. مذنبة.. ضحية آه.. لكنى مذنبة.. لأننى جلادة فى الوقت نفسه.. أمسكت بسيف السموم وقطعت رقابا وأسلت دما وهدمت بيوتا عامرة ونفوسا يمرح فيها الأمل ويرقص.. قتلت البراءة فى عيون متفتحة.. دسست السم فى شرايين مفعمة بالحياة وصدور تبزغ الشمس فى داخلها..

هى تحكى ونحن ننصت..

بدايتى.. بداية طفلة ذات جدايل على زرع وحصد تتمايل - كما كتب صلاح جاهين وغنى عبد الحليم زمان - داخل أسرة سعيدة.. القمر ود ووداد ورجمة وتراحم فى ليلها والشمس خيوط أمل بسام فى نهارها.. الأب ميسور الحال له تجارته الواسعة ونشاطه فى البلاد العربية، ولكنه كطيور الشمال لا تحط بأرض مصر إلا مرة كل عام.. لتلتمس جرعة دفء ولمسة حنان لا تجدها فى أرض الغربة البعيدة.. زهقت أمى، وطهقت من طول الوحدة.. ولم أكن أعرف ماذا تعنى

الوحدة بالنسبة لامرأة جميلة كما كانت أمى - تقف وتدور حول نفسها وتنظر إلينا بعيون الأنثى - أنظروا إلىّ.. أنا نسخة طبق الأصل من أمى مع الشباب والسن الصغيرة - كنت فى المرحلة الابتدائية عندما فقدت أمى.. ليس بالموت.. ولكن بالهجر.. والبحث عن عش دافئ طوال العام.. وليس فى إجازة صيف.. وفقدت حضن أمى ذات صباح حزين، كما فقدت من قبل حنان أبى وعيونه الحارسة طول عمرى.. طارت أمى بعد أن حصلت على الطلاق من أبى.. مع عريسها الجديد إلى أوروبا.. وتركتنى لا أعرف هل مرغمة أم عامدة.. لكننى لم أدرك وقتها حقيقة شعورها.. فسنوات سنى الصغيرة لم تساعدنى أيامها على معرفة الصواب من الخطأ.. وجاءت جدتى لأبى لترعانى.. وتصبح أما بديلة.. ولكن هل يمكن أن تكون فى حياة أى منا أم بديلة وهل تبدل الأمهات أو تشترى أو تستبدل؟.. محال.. لم أجد غير جدتى لأسمعها كلمة: أمى.. وجرت الأعوام سراعا إلى الوراء.. وجرى عمرى إلى الأمام شبابا وحيوية وجمالا يمشى فوق الأرض..

كان أبى للحق يغدق علىّ بكل ما يملكه.. وهو لا يملك إلا المال.. وتليفون من بلاد الغربة كل حين يسأل عن أحوالى.. مجرد كلمات: «عاملة إيه ياروحى؟!!.. موش عاوزة حاجة؟.. خللى بالك من نفسك.. الشيك إللى إنت طلبتيه حولته على البنك باسمك، وشنط الهدوم اللى أنت طلبتيها حاتوصل على الطائرة إللى حاتوصل مصر من باريس الساعة كذا.. وباى باى!».

وعرفت طريقى إلى عالم السيجارة.. أصبحت حريقة سجاير وأنا

مازلت فى الثانوية العامة.. أصبح عندى سيارة أذهب بها إلى حيث أريد.. وكما أريد ووقتما أريد.. لا أحد يسألنى ولا أحد يحاسبنى..

ودخلت الجامعة الأمريكية.. وهناك تفتحت عيونى على عالم لم أعرفه ولم أتصور يوما أن أدخله بقدمى..

....

....

تفتح حقيبة يدها التى وضعتها فوق ركبتيها وهى جالسة أمامنا وتعبث فى محتوياتها.. تنظر إلينا تسألنا: حد معاه سجاير؟!

يفتح لها محمد فؤاد علبة سجائره ليقدم لها سيجارة.. تأخذ واحدة وتعيد له العلبة.. أمسك أنا بالعلبة وأضعها فى حقيبتها وأقول لها: خليها يمكن تحتاجى سجاير.. ترمقنى بعيون شاكرة وطلقة من دخان كأنها طلقة مدفع القلعة ساعة الإفطار تنطلق من فمها.. تزيح بها هما كبيرا ملأ صدرها..

هى بالألم تحكى ونحن بالصمت نلوذ..

تسألنا: ماذا تنتظرون من فتاة جميلة بلا مظلة رقابة.. تلعب بالفلوس.. والوقت ملكها.. وقرارها بيدها وحدها؟

ترد ماجدة شرف: حياة منطلقة.. آخر فرفشة!

قالت مصححة: تقصدين آخر مزاج.. أصبح لى شلة.. نخرج، نذهب، نروح، نسافر، نسهر، نلعب، نفرفش.. لا أحد يسألنا.. لا أحد يحاسبنا.. كلنا أولاد ناس.. فلوس ماتعدش.. لماذا لا نصرفها أو

نبعزقها مادنا لم نتعب فى جمعها.. ودادى أقصد أبى غارق فى البورصة وحساب أمواله فى البنوك.. ولم يعد يربطنى به إلا اسمه بعد اسمى فى البطاقة والشيك المحترم الذى يصلنى منه أول كل شهر وحقيبة الملابس مرتين فى العام مرة فى الشتاء وأخرى فى الصيف، وكل سنة أضيف رقما أكبر إلى مقاس جسمى.. وكلها من باريس أولندن أو نيويورك، وتليفون كل أسبوع مرة.. وباى باى ياحبيبتى أصلى مسافر على طيارة الفجر لهونج كونج!

تسألها ماجدة شرف: ومامتك.. والدتك فين من كل ده؟

قالت: زى دادى بالضبط.. كلمتين: إزيك.. عاوزة حاجة.. خدى بالك من نفسك.. وأما أنزل مصر أشوفك!

باختصار ضعت.. لست وحدى.. ولكن كل الشلة صبيان على بنات.. ورغم ذلك كنت أنجح كل سنة وبتقدير لأنى مفرفشة ولا ينقصنى شئ.. المال والوقت والجمال والذكاء.. وكلها أسلحة أستخدمها جيدا أو تعلمت كيف أستخدمها جيدا وفى الوقت المناسب..

ومن السيجارة العادة إلى السيجارة المعمرة..

تسألها ماجدة شرف: يعنى إيه؟

قلت: يعنى سيجارة زى طلقة الرصاص؟

قالت: ألعن.. لأنها سيجارة مليانة حشيش.. وفى يوم جه ولد مقروص زميلنا، قال لنا: سيبكم من السجاير المعمرة دى أنا عندى اختراع جديد. وفتح أمامنا ورقة فوقها بودرة بيضاء وأمسك بدولار ولفة

مثل الصفارة وضع طرفها فى أنفه والطرف الآخر فوق الورقةالتى فوقها البودرة البيضاء الواقفة فى صف واحد.. ثم سحب نفسا بأنفه لتختفى سطور البودرة إلى صدره.. ويجلس على كرسيه منتشيا.. وسألناه ماهذا ياسبع البرمبة؟.. قال: تذكرة هيروين ياخايبين!

وعرفنا هادم اللذات ومفرق الجماعات الذى اسمه فى هذا العصر الهيروين اللعين، فهو قاتل يرتدى بردة اللذة والانسجام وعالم كله سحر وجمال.. من دخله مرةلا يخرج منه أبدا.. ولأن القط يحب خناقه ـ كما تقول جدتى ـ فقد عرفنا طريقنا إلى دنيا الهيروين..

يسألها إسلام فارس وقد ارتدى ثياب أبو لهب كما قام بدوره فى مسلسلات التليفزيون الدينية: من أين تحصلين على هذا الهيروين اللعين؟!

ترد كأنها تقرز أمرا كان محتوما: من جوه الجامعة نفسها.. كانوا بيبيعون لنا تذاكر الهيروين.. كل شئ موجود ومتاح بس للى يقدر يدفع.. وأنا كان عندى فلوس بالكوم..

يعود يسألها: يعنى البائع زميل من زمايلك؟

قالت وكأنها تحمى أحدا لا تعرفه: حاجة زى كده!

قلت: كم تذكرة هيروين كنت تستنشقين فى اليوم الواحد؟

قالت: فى البداية واحدة كانت بتكلفنى خمسين جنيها فى المرة الواحدة وبعدين.. أصبحوا تذكرتين.. واحدة الصبح قبل ما أنزل الكلية والثانية بالليل قبل السهرة مع الشلة..

قلت: يعنى مائة جنيه فى اليوم الواحد؟!

قالت: أيوه..

قلت: منين؟

قالت: سحبت كل حساباتى فى البنك.. وقدرت أصرف على الهيروين سنة بحالها.. وبعدين أصبحت لا أملك شيئا.. وبدأت أطلب من بابا.. أطلبه بالتليفون.. فى البلد الذى به مقر أعماله وكان مندهشا جدا من سؤالى.. وتعللت بمائة سبب لكى يرسل إلىّ أموالا ودولارات.. وكان لا يبخل علىّ بشئ.. تصور صرفت ١٠٠ ألف جنيه فى سنة واحدة على المزاج المقندل ده؟!

نسألها: إزاى؟

قالت: مصروفى الشهرى + عربتى الخاصة الجولف بعتها برخص التراب بـ ٢٥ ألف جنيه + ذهبى ومجوهراتى كلها + ملابسى الجديدة كلها + كاميرا فيديو + الفيديو والتليفزيون بتاعى اللى فى حجرتى!

نسألها: وجدتك ألم تحلظ عليك شيئا أو تكتشف اختفاء ذهبك أو حاجاتك إللى فى حجرتك؟

قالت: دى ست عجوزة يادوب قادرة تشيل نفسها!

ملحوظة من عندى: كما يقول الأستاذ إبراهيم نافع فى كتابه المثير كارثة الإدمان.. فإن الهيروين فى عرف العلماء هو القاتل العصرى للإنسان وقوته تساوى عشرة أضعاف المورفين، ولا فكاك منه أبدا.. فهو

يدمر الغشاء الذى يحيط بالمخ، وهو يغير من وظائف المخ الحيوية ويخضعها لتأثيره المدمر، وفى المراحل المتقدمة للإدمان يصاب الإنسان بفقدان الشهية والهزال والأرق والتدهور العقلى والجسمى الملحوظ وفقدان القدرة الجنسية فى النهاية

. . . .

. . . .

هى تحكى ونحن آذان صاغية: وجاء على وقت أهملت كل شئ فى حياتى. . شكلى، مظهرى، لبسى، جمالى. . شئ واحد لم أهمله أبدا هو تذكرة الهيروين. . التى أصبحت تكلفنى فى اليوم الواحد مائتى جنيه ثمن تذكرتين، بعد أن زاد ثمن الهيروين وتضاعف إلى ١٠٠ جنيه للجرام البيج أو البنى، أما النقى فالجرام منه بـ ٢٠٠ جنيه يعنى ٧ أضعاف جرام الذهب!

ولما كنت قد أصبحت مدمنة لم يعد فى استطاعتى البعد عنه. . ولو ساعة زمان واحدة. . كنت أجرى فى الشوارع كالمجنونة بحثا عن «هباب البرك» الذى يبيع لنا هذا السم الأبيض. . ولا أعرف ماذا أفعل لكى أحصل على جرعة المخدر. . المهم أن أحصل عليها وبأى طريقة. . أتفهمون بأى طريقة؟!. . وعندما لا أجد هباب البرك أمامى أطير على الباب الأخضر فى مصر عتيقة لأحصل على الجرعة بأى ثمن. . أتعرفون الباب الأخضر؟

يرد إسلام فارس بلهجة الخبير: عند كتكت وعائلته!

قالت: عليكَ نور!

نسألها: وبعدين؟

قالت: ولا قبلين.. لم يعد عندى ما أقدمه لكى أدفع ثمن إدمانى إلا أن أتاجر فى الصنف.. وكذا تحولت من مدمنة إلى تاجرة مخدرات.. من ضحية إلى جلادة!

اشتريت الهيروين من الباب الأخضر ومن بولاق.. وفى البيت أطحنه جيدا وأقسمه إلى تذاكر صغيرة.. كل تذكرة بـ ٥٠ جنيها «أوكاريون» عشان الأولاد والبنات المدمنين الغلابة إللى زيى.. كنت أحمل فى حقيبة كتبى إلى الجامعة كل صباح حوالى خمسين تذكرة.. كنت أبيع منها فى حدود أربعين خمسة وأربعين وأرجع ومعايا الباقى!

أسألها: تبيعى فى الجامعة بس؟

قالت: لأ.. وفى نادى الجزيرة كمان.. ماتنساش أنا لسه عضوة فيه!

أسألها: كم كان مكسبك فى اليوم؟

قالت: ياه ماتعدش فوق الألف جنيه صافى غير إللى بأشمه أربع تذاكر كل يوم لوحدى، واشتريت عربة جولف أجدع من التى بعتها دفعت فيها ٨٠ ألف جنيه، ورجعت ألبس وأتشيك على سنجة عشرة ولأنى جميلة ومغرية زى ما أنتم شايفين الرجالة اتهبلوا علىّ.. ورسمت على واد ضابط شرطة لسه صغير ورميت عليه شباكى وخلليته يخطبنى.. كان مجنون بى، أتجوزته لمدة سنة.. وكنت أذهب به متعمدة إلى النادى والجامعة كمان عشان ماحدش يشك فى نشاطى.. من يصدق أن خطيبة الضابط الجميلة تاجرة هيروين؟!

تسألها ماجدة شرف: ولسه متجوزاه؟

قالت: لا ياحبيبتى ده أول بختى.. أهله ضغطوا عليه لحد ما طلقنى وهو بيعيط علىّ.. وبعدين شبطت فى واحد دكتور معروف اتجوزته وحبيته بصحيح.. وفى يوم شعرت بأننى حامل.. ولأتأكد صحبنى زوجى الطبيب إلى كلية الطب التى يعمل بها.. لأعمل تحاليل.. وأخذوا منى عينة دم ليكتشف زملاؤه أن دمى به هيروين.. وأخبروه بذلك قالوا له زوجتك مدمنة.. فطلقنى على الفور وهو لا يعرف أننى لست مدمنة فقط.. بل وتاجرة مخدرات أيضا!

وأجهضت نفسى.. وعدت إلى حياتى السابقة.. أوزع سمومى على زبائنى فى الجامعة والنادى..

أسألها: كم أمضيت على هذا الحال؟

قالت: كل سنوات دراستى الجامعية..

قلت: وكيف كنت تخفين تذاكر الهيروين وأنت تذهبين إلى الجامعة والنادى بها دون أن يشك فيك أحد أو يضبطك أحد؟

قالت بخبث: إذا أردت أن تخفى شيئا لا تريد أن يكتشفه أحد، فضعه أمام أعين الناس.. أتركه أمامهم بوصفه شيئا لا يدعو للريبة.. لا ينكشفُ أمرك أبدا.. أما إذا أخفيته فى سابع جراب وظللت تنظر إلى مكانه أو تتحسسه بيديك فإن أمرك سوف ينكشف حتما..

أسألها: كيف نجوت من أسر الإدمان.. وأنت خلف القضبان؟

قالت: عشت شهورا بين الحياة والموت وكنت أضرب رأسى فى الحائط.. حاولت الانتحار أكثر من مرة.. ربطونى فى سريرى فى

المستشفى ليالى طويلة.. لكننى قاومت.. كنت فى البداية أحصل على المخدر بالفلوس ولو مرة فى الأسبوع.. لكننى استطعت فى النهاية أن أقتل داخلى هذا الإدمان.. هذا المارد المخيف الذى ركبنى وأحال حياتى جحيما وحولنى من مجرد ضحية إلى جلادة!

نسألها: ودلوقتى؟

قالت: الحمد لله زى ما أنتم شايفين صحتى كويسة وجسمى زاد وأحلويت كمان!

نسألها: لكن رغم كل ذكائك أتمسكتى إزاى؟

قالت: مصادفة لا أكثر.. تفتكر أن الذى يسقط من تجار المخدرات بين أيدى الشرطة شطارة منهم؟.. لا.. إما بلاغ أو إخبارية من واحد موتور أو ماخدش حقه أو شريك عاوز الجو يخلو له.. أو مجرد مصادفة كما حدث لى.. عشان أتوب وأعرف أن الله حق، وأكفر عن خطاياى فى حق الأولاد والبنات إللى ضاعوا بسببى!

نسألها فى صوت واحد: كيف وقعت؟

قالت: فى ليلة كنت قادمة من سهرة طويلة وكنت أقود سيارتى الجولف.. وأوقفتنى دورية مرور تفتيش على الرخص عند كوبرى الزمالك.. وأنا رخصى سليمة وكل حاجة.. ودون تردد أخرجت الرخص من حقيبتى وأنا أمد يدى بها للضابط سقطت أربع تذاكر هيروين كانت باقية من حصاد بيع هذا اليوم.. وأمسك بإحداها الضابط وسألنى ما هذا؟.. لم أجب فى البداية.. قال لى طيب اتفضلى معانا.. وفى التحقيق اعترفت بأنها تخصنى لإستخدامى الشخصى.. لا

للإتجار فيها.. وهكذا لبست قضية حيازة مخدرات.. التى أقضى بسببها عقوبتى هنا!

نسألها: ودادى.. هل عرف أنك هنا؟

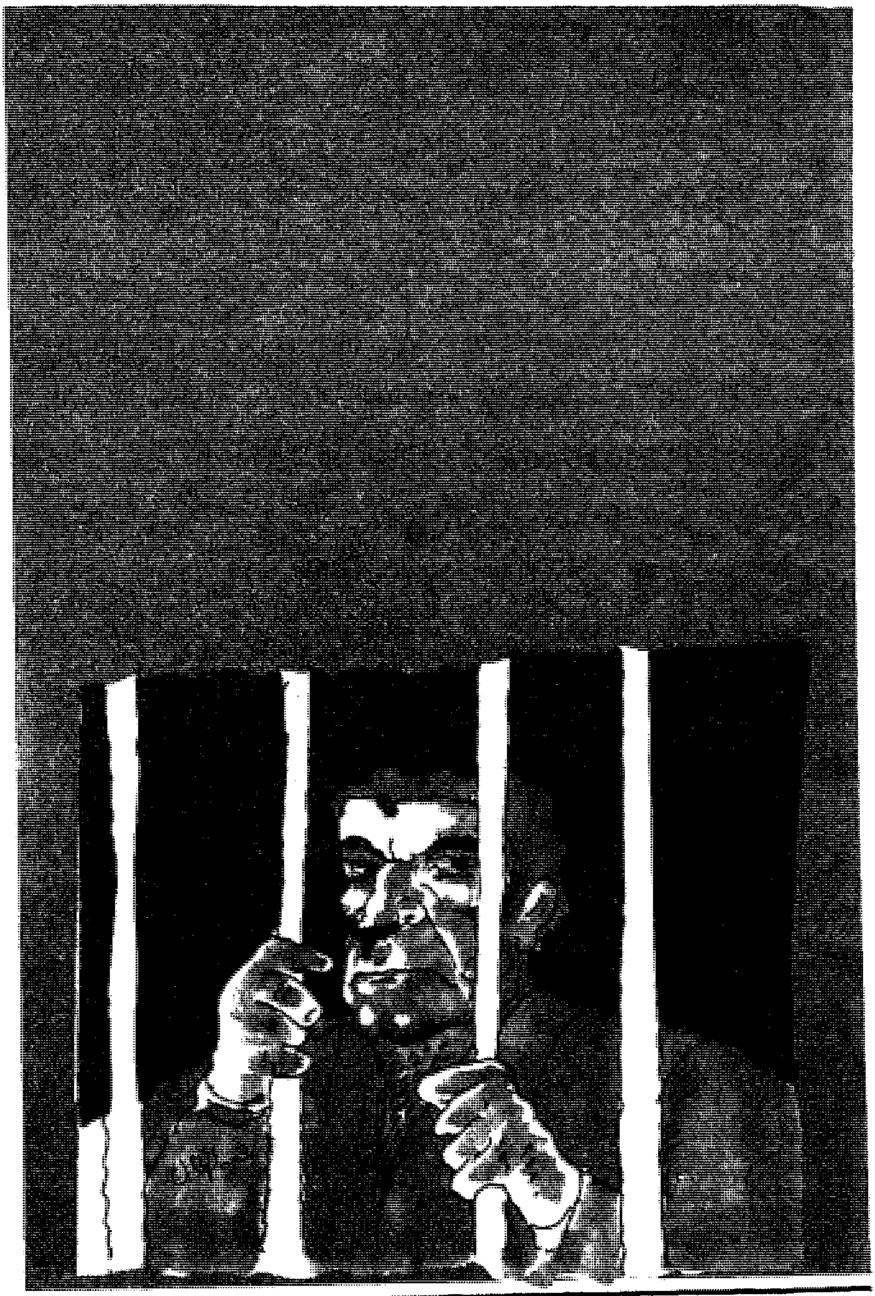
قالت: لا.. فقط يعرف أننى مسافرة فى رحلة دراسية!

نسألها: ووالدتك؟

قالت: مشغولة بأولادها الصغار من زوجها.. وترسل لى بطاقات معايدة فى الأعياد وتترك لى السلام والأشواق على «الأنسر ماشين» فى تليفون المنزل عند جدتى.. وهى الوحيدة التى تعرف.. وتبكى ليل نهار.. وتزورنى داخل عربة إسعاف لأنها لا تقدر على المشى إلا على عكازين.. وترسل لى كل مايرسله إلىّ أبى من أموال.. لكى أصرف على نفسى وآكل والبس. حتى عطرى المفضل ترسله إلىّ.. ربنا يخليها لى!

قبل أن نلملم أوراقنا.. سألناها: وماذا ستفعلين عندما تخرجين من هنا؟

قالت: أنا أحمل شهادة عليا من الجامعة الأمريكية وخبيرة فى الكمبيوتر كمان.. وقد وعيت الدرس جيدا.. وتخلصت من بعبع الإدمان الذى دمر حياتى.. ربما أسافر إلى والدى وأعيش معه فى الخارج.. وربما أذهب إلى أمى التى لا أكاد أعرفها.. ولكننى لن أعود أبدا إلى حياة الظلام.. وسوف أمزق هذه الصفحات السوداء من عمرى.. وليسامحنى الله على ما فعلت! □



٨

الشيطان يموت شنقاً

* أمسكوا بالشيطان، سلسلوه بسلاسل من حديد طولها سبعون ذراعا أو يزيد، لم يكن وحده كان بصحبة حامى حمى الشر على الأرض، ثلاثون من أعوانه وزبانيته، حشروهم داخل قفص الاتهام، بتهمة قتل الزهور قبل أن تتفتح، واصطياد فراشات الأمل قبل أن تحلق، وسحق الأحلام فى الصدور قبل أن تتحقق، وإجهاض الغد قبل أن يشرق، واغتيال البراءة قبل أن تحبو وتكبر وتفرد طولها فى الدنيا كلها!

وذهبت إلى عش الشيطان. . آسف أقصد إلى قفص الاتهام، حيث حزمة الشر مترابطة متلازمة متراصة، يسند بعضها بعضا، وجوههم محفور عليها بحبر أسود لونه سجلهم فى عالم الجريمة. . وعيونهم تنطق وتقول، إنهم باعوا أنفسهم لإبليس الذى جندهم فى مهمة شيطانية لتدمير مصر من الداخل، سلاحهم يلدغ فى الخفاء بلسان أفعى، ويبتسم

فى المساء من خلف قناع ثعبان أزرق نابه، أدواتهم كل ما خلفه الطالح من بنى البشر من صنوف المخدرات الناقعات، حشيشا كان أو أفيونا أو هيروينا، وضحاياهم، زهور مصر المتفتحة من أكبادنا التى تمشى على الأرض، بالسموم البيضاء والسوداء والزرقاء، يجهضون الآمال وغناوى الأيام فى رحم أمة بحالها!

ذهبت إلى المحكمة لأشاهد وأسأل وأصفق للعدل والخير والفضيلة وهى تحاكم الشر والغدر والرذيلة..

قادنى قدرى الطيب إلى موعد مع سقوط الشر على الأرض وانتصار الحق على الباطل. والمحكمة هى بيت الحق.. ولا أعرف لِمَ أخاف دخول المحاكم، كما أخاف دخول أقسام البوليس.. وإن كانت المحكمة تحدد أكثر مصير الإنسان.. ظالما كان أو مظلوما، الخير فى ركابه أم الشر فى صدره مقامه وسنده! قد تدخل المحكمة بقدميك وتخرج منها إلى قبرك!

المحكمة هى التى تفرق بينك وبين أحبابك أخوتك أولادك قد ترفع رأسك بالبراءة وقد تضعها فى الطين بحكم يظل فى سجلك حتى يوم البعث العظيم ويرثه أولادك من بعدك! الستم معى؟! كم أخاف دخول المحكمة ولو متفرجا!

كنا ثلاثة ندخل بأقدامنا الوجلة قاعة المحكمة فى ميدان العباسية.. الزميل سمير السروجى المحرر القضائى بالأهرام والمصور عبد العزيز النمر بكاميراته وأنا بهمى ومواجعى وحصيلة رحلات وجولات وحكايات

عشتها مع الإدمان والمدمنين ومازالت مآسيهم وصرخاتهم تطن فى أذن دامية باكية حزينة حزن الأم على وحيدها.. وأمام عينى تخرج من ذاكرتى أرقام فى لون النيلة، تصرخ فى أذنى: إن الإدمان يقتل من سكان الأرض فى كل سنة نحو ٤٢٠ مليون إنسان. وأنه يكلف البشر على الأقل ٢٠٠ مليار دولار فى السنة، هى حجم تجارة المخدرات فى العالم الآن..

وأسأل نفسى: ولكن أين نحن هنا فى مصر من هذه الأرقام المحلقة بجناحى غراب البين؟

الجواب: لا يوجد رقم حقيقى لحجم الإدمان فى مصر.. ولكن لو حسبنا أن نحو ٧٪ من عدد سكان العالم مدمنون ـ كما تقول الإحصائيات الدولية ـ فإن مصر رصيدها فى حساب بنك الإدمان يكون نحو ٣ ملايين و ٨٥٠ ألف مدمن!

وقد يسأل البعض: كم يكلف الإدمان الخزانة المصرية كل سنة؟

والجواب: فى حدود ٤ مليارات دولار.. وهو الرقم الذى أجمعت عليه دراسات جامعية مصرية وأجنبية!

....

....

بحصيلتى من هذا الهم والكرب العظيم أدخل قاعة المحكمة.. لا موضع لقادم جديد، أنفاس الحاضرين تتلاحق فى انتظار دخول هيئة المحكمة، الحراس موزعون فى كل ركن، الأقارب والأهل والصحاب

رغم شرود ذويهم داخل القفص جاءوا متعلقين بأمل قد يتضاءل حتى يصبح فى حجم خيط الجراح، وقد يكبر حتى يطاول جبل المقطم طولا وعرضا.. والفلاشات من كاميرات المصورين تفرقع وتلمع فوق وجوه المتهمين الثلاثين الجالسين فى شرود وسرحان طويل، فيالها من دقائق تحدد مصيرهم قبل أن يذهبوا فى زيارة موت إلى عشماوى أو يلقى بهم فى غياهب السجن المؤبد، أو إلى رحاب الدنيا الواسعة تظللهم أشجار الطريق وتغمرهم الشمس بنورها مرة أخرى!

كأن الدنيا والآخرة قد تجمعتا هنا فى هذه الساعة داخل هذه القاعة.. الحياة والموت يجلسان جنبا إلى جنب إما أن تكون حرا أو تقيد بأغلال خلف أسوار لا خروج منها ولا دخول إليها.. تجد نفسك خلف حاجز أعلى من سد «يأجوج ومأجوج» فى الحكايات الدينية.. حى صحيح ولكنك أنت والميت سواء تأكل تنام تتكلم، ولكن كعصفور سجين قفصه حبيس جدران أربعة.. ولقد همس لى واحد من الذين ذاقوا طعم السجون: ياليتنى كنت قد مت وأصبحت نسيا منسيا.. أدفع عمرى كله مقابل أن أفعل ما أريد أذهب حيث أريد، أجلس على مقهى كما أريد أمشى فى الشارع أضحك أبكى أتشاجر، آكل، أشرب، أجرى حرا طليقا بلا رقيب وبلا حسيب!

.أرسل عيونى قارئة مدققة سائلة محققة فى قفص الاتهام..

كل الرؤوس مطرقة منكسة.. لا أدرى إذا كانت نادمة أو مستسلمة لقدرها.. فى انتظار عقاب السماء وقصاص أهل الأرض.. لا تعرف من تحركات عيونها يمينا وشمالا إلى أى شئ تنظر إلى خلق الله من حولنا

الذين شرعوا فى قتلهم وقتل أولادهم وقتل آمال وأحلام أمة بحالها بما يتاجرون فيه من سموم بيضاء وبكل لون وملة، ونوع، تفتك بهذا الشباب الأخضر الصغير.. وتنصب سرادقات العزاء فى صدور الأمهات إلى يوم الدين!

نظرات بلهاء فى عيون واحد منهم.. هو بالقطع يعرف مصيره.. بقدر ما جنت يداه من شر وإثم وإفك عظيم.. ونظرات راسبوتينية زائغة فى عيون شيخ معمم تمتد لحيته حتى نصف صدره.. كأنه الشيطان جاء واعظا..!

يطلقون عليها قضية المخدرات الكبرى.. فعدد المتهمين فيها ثلاثون من إخوان الشياطين بينم ٦ سودانيين وواحد تركى والباقون مصريون.. كانوا يتاجرون بالمخدرات.. وضبطوا لديهم أكثر من ١٠ أطنان من الحشيش + ٣٩٠ كيلو جراما من الأفيون الخام = نحو ٥٠٠ مليون جنيه بأسعار هذه الأيام..

اقترب من واحد منهم.. خلف قضبان القفص المحكم الإغلاق وعلى بابه عساكر بالكوم وأمامه ضباط بنفس العدد وربما أكثر كان يخفى وجهه بصحيفة قديمة.. ذقنه وشعره لم يقترب منهما مقص ولا شفرة ربما من يوم أن دخل السجن.. لا أعرف اسمه، ولا يهمنى من هو، ولكن يهمنى ما يجرى داخله من حيرة ولهفة وأمل واهن فى العفو وسراب فى الخلاص وقلق يترجمه إلى تلفت يمنة ويسرة فى كل الجالسين الناعمين المنعمين بالحرية خارج قفصه الحديدى..

قلت له هامسا: إزيك يا سيدى!

نظر إلىّ فى ريبة وقال: أنا عارف إنك ضابط لكن لابس مدنى موش كده.. ياسيدى أنا كويس بوجودك!.

قلت له: وهو فيه ضابط لابس نظارة طبية زى اللى أنا لابسها!

قال: أمال بتسأل ليه؟

قلت: مواطن زيى زيك عاوز يعرف إنت عملت ليه فى نفسك كده؟

قال: ربنا هو اللى أراد وربنا برضه هو اللى حيخلصنى!..

قلت: يخلصك إزاى وأنت كنت عاوز تقتل الناس كلها!..

قال: أصل أنا منحوس من يومى.. قلت أكل عيش وزونى ولاد الحرام وقالوا لى ليه ماتأكولش بغاشة.. لاحصلت أبيض ولا أسود وأدينى موش عارف على المشنقة واللا على المؤبد واللا على الشارع!

قلت: إنت إللى جبته لنفسك يا أخينا.. مافكرتش فى ولادك يحصل لهم زى ما عملت فى ولاد الناس؟..

قال وهو يكاد يبكى: ولادى وبناتى هما فين دلوقتى! ياريت ينسوا إن لهم أب غواه الشيطان، ووداه فى ستين داهية!

يمضى حوارنا الهامس.. وربما حوارنا الأخير لأننى لا أعرف هل سيرسله القاضى إلى عشماوى أو إلى غياهب سجن مؤبد أو إلى طريق تظله أشجارها بظلها..

أتأمل قاعة المحكمة.. وأقول لنفسى فى مونولوج داخلى: «نحن

نحاكم هنا زبانية الشيطان.. وقد آن الأوان لكى نحاكم المجتمع كله.. فهو المسئول الأول والأخير عن سقوط مثل هذا الشباب الصغير فى حفرة الإدمان!».

من هو المتهم الحقيقى؟ هؤلاء أعوان إبليس.. أعتقد أن لهم زبانية وأعوانا كثيرين خارج أسوار المحكمة.. أعوان حانت ساعة دخولهم قفص الاتهام.. البيت والأسرة والأب الغائب ودلع الأولاد والبنات، والنادى، ورفاق السوء!

أم أننا كلنا مذنبون.. وإلى قاعات المحاكم ذاهبون!..

....

....

وقفنا كلنا احتراما للعدالة ممثلة فى هيئة المحكمة: فى المقدمة المستشار جمال عبد الحليم رئيس المحكمة.. إلى يمينه جلس المستشار محمد عبد الجيد شلبى وإلى يساره جلس المستشار صلاح الدين رشدى.. لا صوت يعلو الآن على صوت الحق.. فى القفص نام الشر فى العيون فى انتظار كلمة العدالة وحل محله ابتهال إلى الله وتضرع.. وفى هدوء بليغ وفى بلاغة هادئة وبصوت وحكمة الشيخ محمد عبده قال القاضى وعيونه لا تفارق من وقف أو جلس أو متشبث بقضبان القفص: زعموا إفكا وضلالا أنه بوسعهم أن يخترقوا حاجز الطهارة فى كل موقع وإدارة، فبئس ما زعموا وبئس ما يتقولون، ملايينكم التى اكتنزتموها لن تفيدكم يوم تعودون إلى رب كريم، لقد عبثتم بمقدرات أمة، ولم تشاركوا

وطنكم همه، ضربتم عقول أبنائه وامتصصتم دمه فهيا تهيأوا لتدفعوا ثمن ما اقترفتم فى حق هذه الأمة..

الأعناق من داخل القفص مشرئبة وجلة خائفة مرتجفة الشفاة زائغة العيون، فقد ضاع ممن بقى أشجار الطريق.. فهم إما إلى السجن أو إلى الموت ذاهبون!

أحكام الأشغال الشاقة المؤبدة تهبط بالحق فوق رؤوس خمسة من زبانية إبليس.. ثم أحكام السنوات الخمس والثلاث.. التى كان رقم ٣٠ من بينها.. إهمس لنفسى بدون صوت: إذن صاحبنا الذى كان لى معه حوار أخير هو بالقطع سيدخل ضمن دائرة من سيذهبون إلى الموت عن طريق عشماوى!

أبحث عنه فى القفص.. اختفى وراء زحام الواقفين متشبثين بالقضبان.. أقول لنفسى: «هذا جزاء الظالمين»!

يفتح القاضى بيان فضيلة المفتى أمامه.. بمجرد أن سمعت القاعة اسم المفتى عرف الباقون أن الإعدام من نصيبهم وحدهم.. بكى من بكى، وغسل من غسل القضبان بدموعه وندمه، وسكن الذهول والضياع ما سكن من عيون آثمة قاتلة!

وكأن المفتى يتحدث إلينا ويقول مؤيدا إعدام إثنى عشر من أبناء الشر والرذيلة: قال ابن تيمية إن فى المخدرات من المفاسد ما ليس فى الخمر فهى أولى بالتحريم ومن استعملها ولم يتب لا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين ويصيح نفر من الحاضرين: ياه!

المفتى يواصل فتواه: إننا نرى أنزال عقوبة القتل تعزيرا على هؤلاء المتهمين الإثنى عشر حماية لسلامة المجتمع من شرور هؤلاء وأمثالهم المتاجرين بتلك السموم المدمرة للأفراد والجماعات، ومانزلت تلك السموم بقوم إلا أودت بهم بدنا وروحا وجسما وعقلا!».

لذلك حكمنا ـ القاضى يحكم ـ بالإعدام على إثنى عشر متهما.. هم:.. ومع كل اسم ينطقه يسقط أحد زبانية الشيطان من فوق مقعده ويسدل الستار على أكبر تجمع للخطيئة اكتمل عدد أعوانها إثنى عشر إنسانا أرادوا تدمير مصر من الداخل، ولكن كانت يد العدالة تقف لهم بالمرصاد لترسلهم إلى حبل المشنقة فى أول حكم من نوعه بإعدام ١٢ تاجر مخدرات فى مصر!

هاجت القاعة وماجت وسقطت كل الأقنعة من فوق الوجوه. الفرح الغامر جنبا إلى جنب مع حزب الذهاب إلى الموت، مع فجيعة فقدان الحرية.. كلها فى قفص واحد.. الزغاريد تتسابق مع صرخات النحب والفراق.. سيمفونية غريبة تختلط فيها موسيقى الحزن والفرح فى ملحمة اسمها «القصاص».

....

....

فى حجرة المداولة كان لنا حوار مع صاحب الحكم الشهير الأول من نوعه..

سألته: إشمعنى ١٢ مرة واحدة؟

قال: هذا حق العدالة.. هم مذنبون فى حق مصر.. وهم أول تجار مخدرات نحكم بإعدامهم.. لا نريد أن نترك هذا الجراد المجرم يتسلل إلى داخل دورنا، حتى لا يأكل الأخضر واليابس والزرع والضرع، علينا أن نحمى منه مصر عند الحدود، وأعنى بهم المهربين وتجار السموم البيضاء!

قلت: أليس لدينا أحكام أخرى بإعدام تجار مخدرات؟

قال: لا.. لدينا ٢٨ متهما فى انتظار تنفيذ أحكام الإعدام فيهم فى قضايا تهريب مخدرات، هم مهربون وليسوا تجارا!

أسأل: والإثنا عشر شيطانا الذين حكمت بإعدامهم؟

قال: هم تجار ولأول مرة أطبق عليهم النص المدنى فى القانون القديم وليس الجديد لأننا أمسكناهم يوم ٢٥ فبراير عام ٨٩ يعنى قبل تطبيق القانون الجديد بأقل من خمسة شهور.. وطوال ٣٠ سنة وهى عمر القانون القديم لم يصدر حكم واحد بإعدام تاجر مخدرات رغم أنه موجود فى نص القانون والذى فعلته أننى طبقت القانون وحميت مصر من غدر الشياطين الإثنى عشر!

أسأل: وآخر واحد تم إعدامه؟

يرد زكريا عبد العزيز رئيس النيابة: إنه كاسر حسين وهو باكستانى فى قضية جلب مخدرات وكان عمره ٣٥ سنة وطوله ١٥٥ سم ووزنه ٥٢ كيلو جراما.

قلت: ياه. أنت مذاكر كويس..

قال: وهل هذا شئ ينسى!

قلت: أعتقد أننى قابلت هذا الباكستانى الذى جاء يحمل الموت لشباب مصر!

قالوا: بالقطع فى سجن الاستئناف.

قلت: أجل، وأذكر أنه قد دار بينى وبينه حوار سريع نصفه عربى ونصفه إنجليزى.. أذكر أننى سألته: كم عمرك؟

قال: ٣٥ سنة!

قلت له: كم مكثت هنا فى السجن؟

قال لى: تسعة أشهر!

قلت له: ما هى جريمتك؟

قال لى بعربية مكسرة: أنا جاى من المطار يوم ١٦ مارس من كراتشى وكان معايا شنط أخذتها من واحد صاحبى، ومعرفش فيها إيه، وفى المطار فتشونى، لقوا ٣ أكياس هيروين كل كيس كيلو!

قلت له: وهل تعرف أنه قد حكم عليك بالإعدام؟

قال فى ذهول وخيبة أمل: أنا سلمت أمرى لله، أنا كنت مسافر إلى لندن عشان أدرس، وتارك أمى وأبويا فى كراتشى، أنا ماليش ذنب.. أنا ماليش ذنب، ربنا معايا!

وقلت فى نفسى ساعتها: الله لايحمى إخوان الشياطين أبدا..

يرد القاضى: ربما كان هذا آخر حوار معه.. قبل إعدامه!

قلت: سمعت أن خمسة من المحكوم عليهم فى هذه القضية من أسرة واحدة. ماذا كانت أحكامهم؟

قال: أسرة سيد عبد التواب وعبد الصمد ومحمد وأحمد وحمدان.. والأول إعدام والثانى أشغال شاقة والثالث ثلاث سنوات واثنان براءة.

أسأل: والشيخ صاحب اللحية؟

قال: أشغال شاقة مؤبدة.. إنه صاحب المزرعة التى كانت بها المخدرات.. ولقد وجدنا مليون جنيه عدا ونقدا مع المخدرات وعندما سألناه: من صاحبها؟

قال: لا أعرف.. وحتى الآن مازالت المليون جنيه تبحث عن صاحب!

أسأل: اليس هناك إخوة أو أقارب بين إخوان الشياطين الثلاثين؟

يرد عضو اليسار المستشار صلاح الدين رشدى: القبوزى وناصر وهما سودانيان شقيقان، وعبد الراضى وعبد الغنى وعبد الرحمن إخوان وعبد الأزل قريب محمود علام وشقيق عبد الأزل متزوج أخت عاطف رايد المتزوج من أخت محمود علام.. يعنى كلهم متشابكون وأقارب. وإن كانوا قد أنكروا فى البداية أنهم حتى قد تقابلوا مع بعض من قبل!

قلت: أريد أن أسأل هل حدث واعترض فضيلة المفتى على حكم الإعدام!

قال: فضيلة المفتى لم يعترض أبدا.. بل هو يطبق شريعة الإسلام.. وقد أرفق بموافقته على حكم الإعدام.. بيانا تشريعيا رائعا أرجو أن تنشره كله، حتى يتيقظ الخلق ويستيقظ الغافلون، ويعرف الجميع أن المخدرات حرام، حرام، حرام شرعا!

قلت: لماذا تذهب أحكام الإعدام إلى رئيس الجمهورية؟

قال: من حق رئيس الجمهورية وحده أن يخفف حكم الإعدام إلى درجة أقل، يعنى أشغال شاقة مؤبدة!

أسأل: وهل استخدم الرئيس حقه هذا ولو مرة واحدة؟

قال: أبدا!

قلت: وهل هناك مجال لنقض الحكم بالإعدام أمام محكمة النقض.

قال: الحكم الذى أصدرته بإعدام ١٢ تاجرا أمام عينيك سوف ينظر تلقائيا خلال ٣٠ يوما أمام محكمة النقض، فالنيابة تطعن فيه لتأييده والمتهمون يطعنون فيه لتخفيف الحكم!

قلت: وهل تعتقد أن هناك بارقة أمل أمام إخوان الشياطين الإثنى عشر لتخفيف الحم بإعدامهم؟

قال: قضايانا لا تخفف أبدا.. وأحكامنا تنفذ كما هى!

قلت: يعنى إن شاء الله سوف تتخلص مصر من أقطاب مثلث الشيطان؟

قال: بإذن الله!

أسأل القاضى: هل أنت راض عن أحكامك؟

قال فى ثقة: كل الرضا.. وأستطيع أن أنام ملء جفونى مرتاح الضمير مادام الأمر يتعلق بمصر.. فلابد أن نحميها من شر غادر إذا غدر!

....

....

أسرح بعيدا بعيدا إلى أوكار الأفاعى البشرية التى تحصد الشباب الأخضر الصغير، الذين شاهدتهم بعينى يمدون أذرعهم وأنوفهم وأفواههم إلى إخوان إبليس.. ليحصلوا على جرعة السم البطئ.. أمل هذه الأمة وهو يتبخر أمام أعيننا..

أسأل ذاكرتى: كم عدد القضايا التى ضبطتها أجهزة مكافحة المخدرات؟

الجواب من ملف إدارة المكافحة نفسها: ١٠٧٢٥ قضية فى الفترة من أول يناير ٨٨ وحتى ٣١ ديسمبر من نفس العام، وعدد المتهمين فيها بلغ ١٢٣٨٤ متهما ومتهمة!

....

....

أترك المحكمة.. بعد أن قالت العدالة كلمتها..

فى الخارج عربة السجن تحمل كل الزبانية.. الذاهبين إلى الموت.. والراحلين إلى ماشاء الله فى ظلام السجون.. والخارجين إلى أحضان

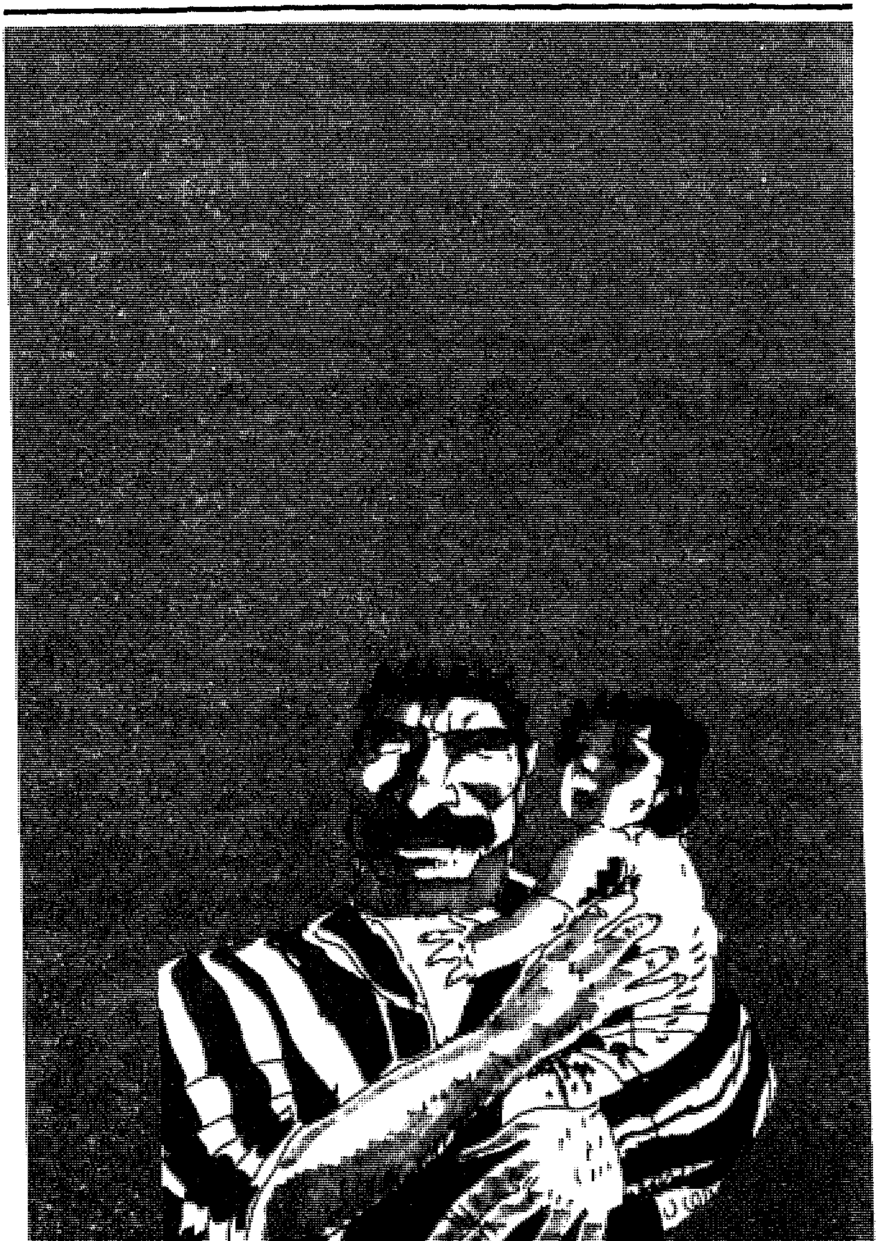
الحرية كلهم معا . . زحام الأهل والأقارب يحيط بالعربة . . امرأة تطلق زغرودة فرح . . فزوجها أفلت من حبل المشنقة، امرأة أخرى سوف تصبح أرملة بعد أن يلتف حبل المشنقة حول رقبة زوجها تزغدها فى صدرها بغيظ وهى تصرخ فى وجهها. جرى إيه يامرة يامهروشة . . إتلمى أحسن أقطع لسانك . . !

تكتم المرأة فرحتها فى صدرها ولا تنطق إنها الحياة فرح هنا وحزن هنا أيضا . . والإنسان هو الإنسان والمكان هو المكان. والزمان هو الزمان!

•

هذا القاضى صاحب أول حكم من نوعه تلقى تهديدا بالقتل وهو يستعد لفرح ابنته فى العيد . . ولكنه لم يهتز . . ونطق بحكمه الشهير الذى أرسل إثنى عشر من أعوان إبليس إلى حبل المشنقة . . وليعلم الظالمون أى منقلب ينقلبون . .

طوبى لك يا مصر كم فى حبك، كم من أجلك، كم من حولك، من رجال مخلصين! □



٩

طائر الليل الأسود

* كأننى لم أغادر قاعة المحكمة بعد.. وكأننى لم أبعد خطوة واحدة إلى الدنيا الشقية النقية، المرحة والورعة، بإقبالها بإدبارها!.. وكأننى أعيش لحظات الحياة والموت، لحظات الخوف من تسلل الحياة، واقتراب ساعة الموت التى استقرت فى عيون أعوان الشيطان وربانيته.. وهم مولولون، صارخون ملتاعون.. لا يعرفون هل هم واقفون أم جالسون أم راقدون.. داخل قفص الاتهام، وقد استقرت فى عمرهم أحكام الإعدام.. ليسقطوا فى حفرة القصاص.. إثنا عشر إبليسا مكيرا يخفون شرير نواياهم وخبيث مقاصدهم خلف قناع بشرى.. وبطاقة فى جيبهم تقول إنهم بشر وما هم ببشر.. هم قتلة الخير فى الأرض، هم حملة الحزن إلى الصدور، هم حماة الشر وعبدته وسدنته، هم رسل الموت إلى الشباب المحلق بجناحى عصفور مغرد.. لتخرس غناوى الحياة من فوق الشفاه.. وتتحجر الدموع فى مآقى الأمهات!

مازلت أسير الحكم التاريخى الذى نطق به قاض فاضل لم يرض بالضلالة أن تنتصر، ولا بالإفك أن يعلو صوته بإرسال أعناق إثنى عشر إبليسا مكيرا تجارتهم الموت ولقمة عيشهم خراب البيوت.. إلى عشماوى الذى يتحرق شوقا لوضع رقابهم داخل حبل المشنقة.. لتنطلق آهة ارتياح من كل فم، من كل صدر، وفى كل دار!

ها هو القصاص العادل وفى حفرة من حفر جهنم، يلقى بتجار الموت الأسود ويهال عليهم تراب ضحاياهم. ليكتمل عدد من ينتظرهم عشماوى بفارغ صبر أمة بحالها.. أربعون منْ تلاميذ إبليس وخلفائه فى الأرض.. فإن قائمة الانتظار تضم نحو ٢٨ من المحكوم عليهم بالإعدام شنقا بتهمة جلب المخدرات وتهريب السموم الناقعات إلى داخل البلاد.. وها هو القاضى الفاضل والحكم العادل المستشار جمال عبد الحليم يكملهم أربعين، بإرساله إثنى عشر من أبالسة هذا الزمان الذين يلبسون رداء الإنسان.. إلى عشماوى!.. ماذا ننتظر لكى يلتف حبل القصاص حول رقابهم؟

كلنا يعرف أن الإثنى عشر إبليسا مكيرا ـ كما قال لى المستشار جمال عبد الحليم الذى وضع حبل المشنقة حول أعناقهم مرة واحدة فى أول حكم من نوعه فى تاريخ أحكام المخدرات فى مصر ـ فى خلال ٣٠ يوما من صدور الحكم سوف يطعنون فيه لتخفيفه أمام محكمة النقض فالشيطان رغم آثامه وأوزاره يخاف من الموت ويعشق الحياة ولو فى ركاب الشر.. وسوف تطعن نيابة المخدرات لتأييد الحكم بعدها يصبح

الموت وحده رفيقهم وصاحبهم ومضيفهم.. لأن قضاة محكمة النقض مثلنا لا يريدون لإخوان إبليس أن ينتشروا فى الأرض ويعيثوا فيها فسادا ونشورا!

وإذا كان حبل المشنقة قد التف حول رقبة مهرب واحد حاول أن يقتل الغد قبل أن يبزغ فى صدور الشباب الأخضر الصغير.

وإذا كان حبل المشنقة سوف يلتف حول رقبة ١٢ من تجار الموت لأول مرة فى مصر..

فلماذا ابتعد نفس الحبل عن الـ ٢٨ مهربا الذين ينتظرون الأمر بتنفيذ حكم العدالة فيهم.. وقد قالت كلمتها منذ وقت طويل.. بإرسالهم إلى الموت شنقا؟

اسمحوا لى أن أنقل هنا تسجيلا أمينا للحوار الذى دار بينى وبين المستشار جمال شومان ـ وكان وقتها يشغل منصب النائب العام ـ سألته: لماذا لم تنفذ أحكام الإعدام إلا فى مهرب واحد فقط حتى الآن؟

قال: لقد صدرت أحكام بالإعدام، ولكن من ناحية تنفيذها لابد من سلوك طريق طويل، من الإجراءات والاستشكالات التى يقدمها المحامون بكل ما فى جعبتهم من حيل قانونية. من خلال الثغرات التى ينفذون منها فى مواد قانون جرائم المخدرات، ثم هناك سماع شهود الإثبات وشهود النفى.. بحر طويل من المناورات.. الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى تعطيل تنفيذ أحكام الإعدام..

قلت: ألم ينقض وقت طويل عبرنا خلاله هذه المناورات والتحايلات القانونية؟

قال: لابد من عرض هذه الأحكام أمام محكمة النقض لإقرارها.. وإذا حدث مثلا أن محكمة النقض لم تقر الأحكام، تعود مرة أخرى إلى محكمة الجنايات أمام دائرة أخرى.. وقد صدرت أحكام فى بعضها بتخفيف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.. والبعض الآخر لم تصدر فيه أحكام جديدة بعد.

أسأله: وتصديق رئيس الجمهورية على أحكام الإعدام،، هل هو سبب التأخير؟

قال: من حق الرئيس تخفيف أحكام الإعدام إلى عقوبات أقل.. ولكن والحق يقال فإن الرئيس حسنى مبارك لم يستخدم حقه هذا ولو مرة واحدة منذ توليه الحكم حتى الآن.. أسرع ورقة يوقعها الرئيس هى ورقة الحكم بالإعدام.. يعنى مسافة السكة!

قلت: ربما الذى يعطل التنفيذ هو فضيلة المفتى!

قال: أبدا فضيلة المفتى يؤخذ رأيه قبل النطق بالحكم.

قلت: يعنى أن حكم إحالة أوراق المتهم إلى فضيلة المفتى، معناه أن المفتى وافق على الإعدام؟

قال: هذا صحيح..

قلت: وإذا انتهت الاستشكالات، وأقرت محكمة النقض أحكام الإعدام.. يتم تنفيذها؟

قال: لاشئ يمنع حدوث ذلك.

....

....

ويشطر خاطرى كحد السيف سؤال ينزف دما: وماذا بعد إرسال أربعين من زبانية الشيطان إلى حبل المشنقة؟

صحيح أن مهربا للسموم البيضاء من هيروين وكوكايين.. مهربا واحدا تم إعدامه بالفعل.. وسوف يلحق به إثنا عشر من أعوان إبليس هبطوا أرض مصر فى ثياب تجار مخدرات يوزعون السم ويتاجرون بحياة الشباب الصغير.. ولكن ما زالت القائمة تضم ٢٨ إبليسا آخرين فى أعناقهم معلقة أحكام بإعدامهم، ورؤوسهم مازالت حية تتحرك فوق أعناقهم.. والعدالة البطيئة كما تعلمناها فى الجامعة.. هى الظلم بعينه.. فالدور التى أغلقت أبوابها على الحزن والموت، ونهر الدموع التى مازالت تتدفق من عيون الأمهات.. وبحر من الحسرة والندم ورياح القلق لم تكف لحظة عن كسر حاجز الأمان وتحطيم بر السكينة فى صدور الآباء.. كل هذا، وهذا كله لن يهدأ له بال أو يستقر به حال إلا وقد شاهد بعينى رأسه رقاب الأربعين شيطانا معلقة فى حبال المشانق!

ومازلت أتذكر كلمات أم فقدت وحيدها بالوت إدمانا: نفسى أشوف فيهم يوم!

وسألتها: من هم يا أمى؟

قالت: تجار الموت الذين اغتالوا وحيدى.. رؤوسهم مدلاة من فوق المشانق..!

أن أهل مصر.. أهلى وأهلك فى الريف والحضر يريدون أن يشاهدوا بعيونهم ولو مرة واحدة تاجر مخدرات معلقة رقبته فى حبل مشنقة.

ولما سألت المستشار جمال شومان إذا كان من الممكن تحقيق أمنية الناس فى مصر..

قال: ليس من طبيعة المصريين أن يكون الإعدام علنا وعلى مشهد من الجماهير.. أن للموت عندنا رهبة حتى لو كان موت شيطان رجيم.. لحرمة الموت وقداسته!

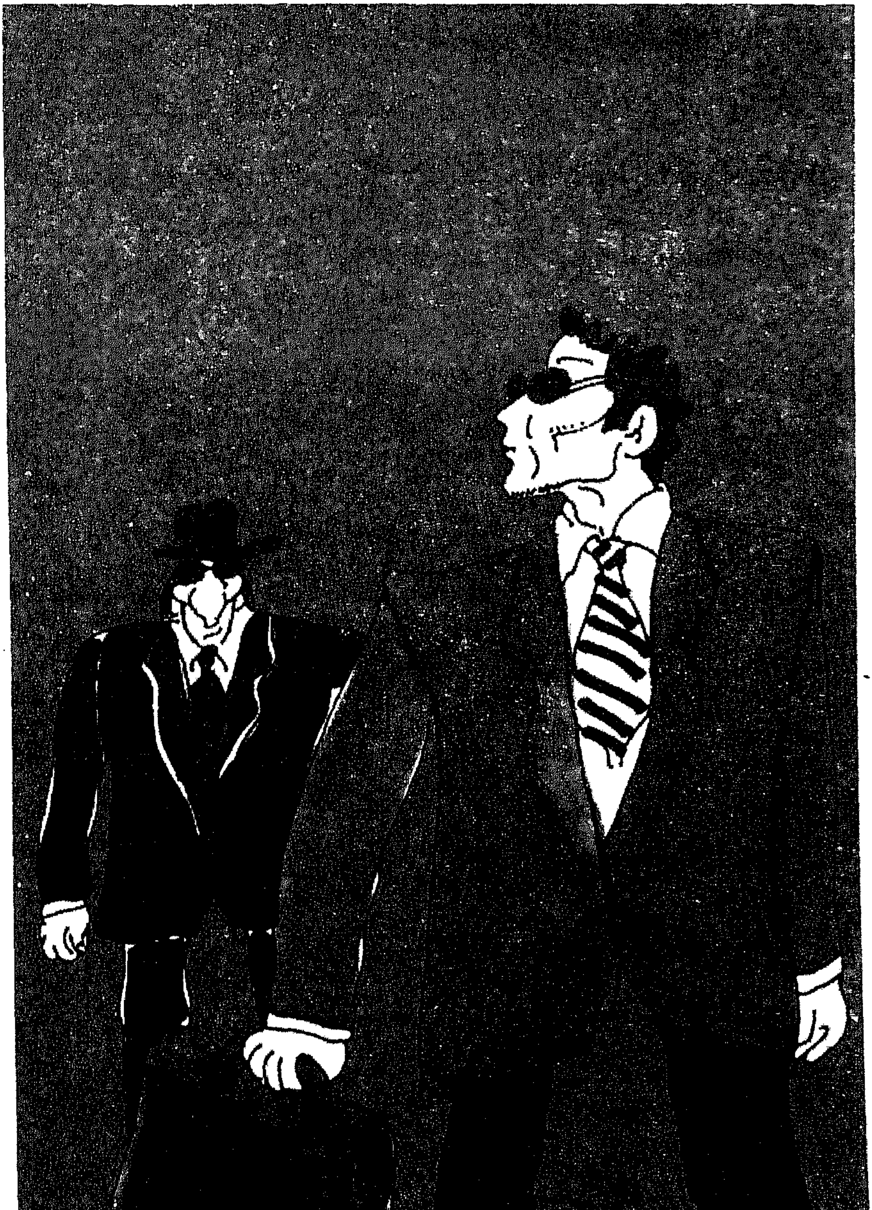
....

....

نحن للحق قد دخلنا نفقا يحرسه الشيطان.. ولا سبيل للخروج منه كما قالت السيدة سوزان مبارك فى كلمتها أمام مؤتمر الجمعية المصرية للتوعية من الإدمان: «إن مكافحة الإدمان والمخدرات هى معركة مصيرية بمعنى الكلمة، ولابد من تدارك خطرها فى مختلف الميادين وبغير تهاون أو تردد..»

من المؤكد أننا حقا أمام تنين ذات سبعة رؤوس بلا قلب وبلا ضميرا

ومازلت أتذكر كلمات أم فقدت وحيدها.. اغتالته يد الإدمان فى مقتل وهو بعد غض نضير: «اقطعوا رأس الأفعى.. قبل أن تقيم فى كل بيت مأتما وعويلا».. □



١٠

المصيدة

* كلنا فى هذه الدنيا دخلنا إليها بتذكرة دخول.. وسوف نخرج منها بتذكرة خروج.. ولا دخل لنا فى دخولنا وخروجنا.. تلك إرادة الخالق وحده.. له الأمر وعلينا الطاعة.. فهو الذى يحدد ساعة ميلادنا ومن هو أبونا ومن هى أمنا.. وبأى أرض ننزل وهو الذى يحدد ساعة رحيلنا شئنا أو لم نشأ.. ولا مهرب للإنسان من الميلاد والرحيل.. فكلنا مجرد أوراق فى شجرة واحدة.. عندما تحين ساعتنا نتساقط كأوراق الخريف.. لافرق بين إنسان وحيوان وطير وفراشة وزهرة.. فكلنا مخلوقات الله.. وإن كان الله قد فضل من خلقه الإنسان.. حتى إنه جعله خليفته فى الأرض.. فكان ظلوماً جهولاً!

وإذا كانت الحياة والموت هما الحقيقتان المؤكدتان فى هذه الدنيا.. ولكن الناس عادة تخاف من الموت.. لأنه يحمل الإنسان إلى

المجهول.. ويبعده عن أعز الناس إليه وعن كل أسباب سعادته أو شقائه في هذه الدنيا: الكرسى.. السلطان.. الجاه.. العز.. المرأة.. المال والبنون.. ولايوجد مخلوق يعرف ماذا سيحدث له بعد الموت.. وكل مايقال مجرد اجتهادات وتفسيرات لا أكثر ولا أقل.. لأنه لم يذهب إنسان إلى الموت ثم عاد إلينا ليحكى ماذا شاهد وماذا رأى؟

والحكيم آنى وهو حكيم مصرى وصل إلى مرتبة الرسل والأنبياء.. ربما قبل عصر الرسالات السماوية قال مرة وهو يعظ ابنه:

«يابنى أنهم من خيرات الله.. كل واشرب وامرح ولكن لاتؤذ أحدا.. عش يومك وأعبد ربك.. لأنه عندما يحين الرحيل.. لاينفع البكاء ولا النحيب.. ولا أحد ممن ذهبوا عاد!»

وإذا كنا لا نعرف متى نجئ إلى الدنيا ومتى نرحل عنها.. ولكن ماذا يحدث عندما تعرف بالأوراق الرسمية المختومة أنك راحل عن الدنيا وأنت مازلت فى كامل قواك موفور الصحة.. وربما فى عز شبابك؟

وليست الأوراق الرسمية هنا مجرد روشتة أو شهادة طبية يقول فيها الأطباء أن حالتك ميئوس منها.. وأيامك فى الدنيا معدودة كما فعلوا مع الرئيس الفرنسي ميتران مؤخرا وحددوا له مهلة قصيرة جدا للحياة لاتتعدى الشهور الستة القادمة..!

ولكن الأطباء قد يخطئون التقدير.. وأناشخصيا أعرف امرأة قال الأطباء أنها ستموت حتما خلال ثلاثة شهور على الأكثر.. ولكنها تحدت الأطباء والدنيا كلها وعاشت حتى تجاوزت من العمر أرذله ومات كل من

حولها حتى طبيبها المعالج ولم ترحل إلا بعد أن تعدت السادسة والتسعين من عمرها!

والأوراق الرسمية التى أعنيها هنا هى التى تذهب باسمك إلى فضيلة المفتى.. لتدخل طابور المنتظرين تنفيذ حكم الإعدام فيهم.. وترتدى البدلة الحمراء.. ما أقسى أن تسمع حكم الموت بأذنيك.. وما أمر أن يصبح عمرك رهينة بطابور المنفذين الذين يضربون بأقدامهم بلاط الممر المؤدى إلى زنزانتك ذات صباح كئيب لم تطلع له شمس.. ليوقظوك من نومك ويصحبوك فى رحلة إلى الآخرة!

. . . .

. . . .

الجالس أمامى الزائغ العينين بلا هدف.. الواجم الشاحب.. كأن عنكبوتا قد نسج خيوطه السوداء فوق وجهه كله.. واحد من الذين ينتظرون طابور الإعدام الصباحى.. مرتديا ثيابا حمراء.. علامة الموت فى عالم الذين يعيشون خلف الأسوار.. قد يكون الآن وأنا أكتب هذه السطور قد ركب زورق الرحيل وفرد شراعه فى نهر بلا عودة.. وربما مازال فى عمره بقية من أيام أو حتى من ساعات.. تأخر فيها طابور الصباح الأسود!

أنا جالس الآن فى حضرة الموت.. آسف أقصد فى حضرة من سيأخذه الموت.. هو لايعرف متى.. ولكن هناك من يعرف من البشر متى تحين ساعته بالدقيقة والثانية قبل اليوم والشهر..

غريب أن تحاول أن تغوص فى أعماق من ينتظره الموت لامحالة بعد

أن سمع بأذنيه الحكم بإحالة أوراقه إلى فضيلة المفتى.. ثم جاءوا إليه ليخبروه أن الحكم قد أصبح نهائيا وأن أيامه فى الدنيا أصبحت معدودات!

ماذا فعلت فى دنياك يافتى؟

أسأله وأنا مشفق عليه وهو ذاهب إلى الموت.. قليل من الرحمة يكفيه..

الصمت كان جوابه.. أزاح بيديه خيوط العنكبوت من فوق وجهه المتجهم.. بانت ملامح وجهه الشاحب.. لاتختلف فى شئ عن ملامح أى شاب فى مثل سنه.. كما تقول بطاقته أنه لم يتعد السابعة والثلاثين.. ولكنه أمامى بكآبة الموت القادم فوق سحنته قد تحول إلى شيخ هرم هرب منه العمر وولى من طول عشرته ونكده.. ونقاره.. خلت أنه سوف ينطق.. ولكنه سكت وآثر الدخول فى نفق الصمت الطويل..

قلت فى نفسى: ربما تفك عقدة لسانه أنفاس سيجارة..

عزمت عليه بواحدة من علبة أحضرتها معى خصيصاً.. فأنا لست من طابور المدخنين للسجاير والسيجار.. قبلها على الفور.. أشعلها بعود ثقاب من جيبه.. وبدأ ينطق ويتكلم:

أنا لست قاتلا من الذين يمسكون بالسكاكين والمطاوى والمسدسات والبنادق.. أو يدسون السم لضحاياهم أو يخنقونهم بأيديهم وهم نيام.. ولكن إذا كنت تصنفنى فى قائمة القتلة للشباب الصغير الذى

لايدرى من أمره شيئا. . بالمتعة واللذة والانسجام والتحليق فى أجواء من أحلام اليقظة والهروب من مطبات الأيام ومحن التفسخ الأسرى والعفن العائلى. . فهذا من حقك. . وهذا ما جنته يداى وماجنيته على نفسى!

قلت له على المكشوف: أنت إذن ياعزيزى من الذين يحطمون مصر من الداخل. . ويقطفون زهرة شباب هذا البلد. . قبل الأوان!

قال بصوت منكسر: هذا صحيح!

قلت: وكم قصفت من عمر البراعم يافتى؟

قال: لاأعرف. . كانت مهمتى ترويج الصنف بينهم. . ولم أكن أراهم وهم يسقطون. . ففى كل يوم أرى وجوها غير الوجوه. . بينما تختفى وجوه لا أعرف إلى أين ذهبت!

قلت: قل لى كيف وصلت فى رحلتك إلى أن أصبحت على موعد مع الموت؟

قال: هذا ماجنته يداى. . ولا ألومن إلا نفسى. . وإن كانت حكايتى تستحق منك أن تقدمها للناس حتى ينتبه الآباء وحتى لاتنام عيون الأمهات ولا تسرحن ولو للحظة زمان واحدة عن أبنائهن وبناتهن!

أسكت منصتا. . مادامت عقدة لسانه قد انحلت. . فلنتركه يحكى ويقول ويفضفض. :

كنت أعيش فى ظل أسرة كثيرة العدد. كثيرة الهم والغم. . أبى كان صاحب ورشة أنوال يدوية. . وكنا تسعة من الأخوة والأخوات لم نكن كلنا أبناء أم واحدة. . بل كانت لنا ثلاث أمهات غير الفكة!

أسأله: يعنى إيه غير الفكة؟

قال: دول اللى اتجوزهم أبويا وماخلفوش وراحوا لحال سبيلهم!

قلت: كنت رقم كام فى اخواتك؟

قال: رقم أربعة.. وكنا أربع أولاد وخمس بنات.. كنا كلنا فى المدارس.. لكن البنات لحد الابتدائية وتجرش فى البيت..

أسأله: ليه؟

قال: تستنى العريس!

قلت: والأولاد؟

قال: كنا كويسين ماشيين فى التعليم لحد ما انكسر أبونا.. وشغلانة الأنوال دى بارت وبقينا يادوب نأكل ونشرب على قد القد.. وطلعنا من المدارس واحد وراء الثانى.. أنا شخصياً طلعت من أولى ثانوى.. واخواتى ماكملوش الثانوية.. ورحنا ندور على شغل.. لكن ربنا رمانى على واحد صاحبى متريش.. وباين عليه ابن عز.. كل يوم والتانى يعدى علىَّ فى بيتنا فى عزبة النخل.. ويأخذنى بعربية آخر فخفخة عشان «نتصرمح» أنا وهو.. أنا ماكانش معايا ولا مليم أحمر.. لكن كان دمى خفيف والبنات كانت بتحبنى.. وهو إللى كان بيصرف.. موش عارف كان بيجيب الفلوس دى كلها منين!

قلت: ما سألتوش ولو مرة واحدة منين الفلوس دى؟!

قال: وأسأله ليه.. مادام بيلعب بالفلوس لعب.. قلت لنفسى نلعب معاه..

أسأله: ولعبت؟

قال: وياريت مالعبت!

قلت: حصل إيه؟

قال: حصل أنى وقعت فى «الخية».. لكن مادرتشى إلا بعد ماوقعت وغرقت لشوشتى!

قلت: طلع ابن حرام مصفى!

قال: موش هو.. ده أبوه.. طلع تاجر صنف كبير وجرنى معاه فى الكار.. فلوس وسهر وكباب ونيفة وبنات وشرب وآخر مزاج!

قلت: وجربت الصنف؟

قال: طبعا.. انغرست فى الوحل لحد مناخيرى.. ولقيت صاحبى بيشرب سجاير محشية.. شربت معاه.. وبعدين انتقلنا أو اترقينا حسب تعبير شلة المزاج التى أصبحت واحدا منها.. وشربنا أبو صليبة والماكستون فورت.. ومرة وحدة لقيتنى بأشم تذاكر الهيروين لحد مابقيت مدمن!

قلت: كنت طبعا فى الأول بتشرب ببلاش!

قال: أيوه.. وكان أبو صاحبى تاجر الصنف.. يقوللى يابنى فرفش حد واخد منها حاجة!

قلت: وبعدين مرة واحدة منعوا عنك الصنف!

يلتفت إلىَّ فى دهشة ويقول: الله.. هو أنت كنت معانا واللا إيه؟!

قلت: أبدا ما هو كده بداية طريق السقوط!

قال: بصيت لقيت الواد صاحبى غاب عنى يوم يومين.. كنت حاتجنن.. مخي كان حينفجر.. وجسمي كان بيرتعش.. وكنت أتمرمغ قدام أخواتى.. وأمى كانت بتقول لجيرانا أصل الزناتى ـ إللى هو أنا ـ بعافية.. وراكبه الأسياد!

قلت: أسياد مين يازناتى!

قال: العفاريت يعنى.. ماهم ماكانوش فاهمين أن ابنهم راح خلاص فى الكازوزا!

قلت: وطبعا جريت تدور على صاحبك!

قال: أمال أعمل إيه.. لقيته بيتهرب منى.. وبعد دوخة قابلنى وقاللى عايز إيه يازناتى أنت مابقتش تنفع ببصلة!

قلت مقلدا طريقته فى الحوار: غلى الدم فى عروقك وقلت إشترى نفسى أحسن وأرجع عن سكة الندامة دى!

قال: لأ.. فاتتك دى!

قلت: أمال عملت إيه؟

قال: وطيت على رجله أبوسها وأعتذر له!

قلت مشفقا: إزاى بس ياراجل تمرمط نفسك بالشكل ده؟!

قال بألم: من إللى بيا ياسعادة البيه.. كنت ساعتها ممكن أعمل أى حاجة.. أى حاجة.. بس أشم شمة هيروين أو آخد حقنة ماكس!

قلت: ماشى ياسيدى!

قال: طلع أبوه على الباب وشخط فى ابنه شخطة مجدعة، وقال له: كده ياواد ياقليل الأدب تعمل فى صاحبك كده.. خش يارناتى سيبك منه ده ولد ماترباش!

ودخلت.. وطوالى خدنى أبوه على جوه.. وصلب طولى ورد فىَّ الروح بتذكرة هيروين نمرة واحد.. يعنى موش مخلوط إلا بنسبة ٥٠٪ بس!

بعدها.. جابهالى على بلاطة.. وقال لى عاوز تشم تشتغل معانا فى الصنف..

قلت: واشتغلت فى الصنف!

قال: أيوه.. وبقيت زيهم ألعب بالفلوس لعب..

قلت: ساعدت والدك ووالدتك وأخواتك واللا نسيتهم بعد ما الفلوس جريت فى إيديك؟

قال: على قد ما أقدر.. هو الضفر يطلع برضه من اللحم.. بعد ما أبونا قعد فى البيت كنت أرسل له قرشين كل شهر وجوزت اثنين من اخواتى..

قلت: والله فيك الخير!

قال: المهم.. المعلم الكبير شاف أنى أقدر أقوم بدور أكبر من توزيع الصنف فى النوادى والملاهى الليلية. وقاللى إلبس شيك وأرطن كام

كلمة أفرنجى من إللى إتعلمتهم فى المدارس.. وسافر بره عشان تقابل الخواجة!

قلت: خواجة إيه يازناتى!

قال: ده سر المهنة ياحضرة.. بلاش مقاطعة وأسئلة كثيرة لحسن موش حاتكلم.. أنت عارف الحيطان لها ودان!

قلت منبها: وأنت باقى على إيه يازناتى؟

بحزن قال: تقصد حاودع.. موش يعنى ممكن ربنا يفرجها.. ويصدر قانون غير القانون ويعدلوا الحكم لأشغال شاقة؟!

قلت: برضه وأنت قريب من حبل المشنقة عندك أمل!

قال: سيبك من ده كله.. وخلينا فى المدعوق إللى إسمه الخواجه ده.. إللى قابلته فى باليرمو فى إيطاليا.. ودى معقل تجار المخدرات فى العالم كله.. العتاولة بتوعهم إللى بإشاة منهم يرفعوك فوق!

قلت مقاطعا: وبإشارة منهم يودوك سابع أرض!

قال بطريقة أولاد البلد: عليك نور.. وهناك اتعلمت إللى ماتعلمتوش فى حياتى كلها وموش حاتعلم زيه أبداً..

قلت: منك نستفيد!

قال: علمونى إزاى أخبى الصنف وأسافر بيه وأركب الطيارات وأعدى من البوابات والكلاب البوليسية إللى بتشم التايهة.. وأمر على الجمارك وأتفتش عشر مرات وماحدش يمسكنى ولو بتعميرة واحدة!

قلت: طب قوللى نورنى!

قال: حاجات كثيرة وده سر المهنة ياسيدى معقول أكشفه كده ببساطة؟!

قلت: طيب حاجة واللا اثنين من الاعيبكم!

قال: يعنى حكاية بلع الهيروين فى أنابيب أو لبسها فى أعضاء الرجل أو الست بطلت وبقت موضة قديمة.. الجديد جاكت أسبور جميل الواحد يلبسه وبدل الحشو الداخلى يوضع الهيروين البودرة ويغلف بغلاف معين حساس ضد التصوير وضد الأشعة وضد الشم من جانب الشرطة أو الكلاب البوليسية!

أسأله: وإيه كمان؟

قال: شنطة سحرية لا يمكن لأى أحد أن يكتشف رأسها من رجليها.. وكلها بزراير تعمل بالشفرة أو بصوت حاملها فقط وبكلمات معينة.. يعنى شنطة مبرمجة تكلمها تفتح بقها وتديك إللى مستخبى.. وإللى مستخبى ده طبعا ياكوكايين ياهباب البرك إللى اسمه هيروين!

قلت: زدنى علما يامولانا الزناتى!

قال منتفخا وقد أعجبته كلمة مولانا هذه: علب بودرة للستات وعقود لولى وشيكولاته محشية هيروين أو كوكايين. وكتب ورقها كله مشبع بهيروين أو كوكايين سايل وكاميرات فيديو محشية برضة من الصنف.. الجديد هنا أنهم يغلفونها بمادة تعمى عيون أى جهاز يمكن أن يكتشفها.. وده السر إللى ماقدرش أعرفه!

تصور عملوا لى جواز سفر دبلوماسى هندى وعديت بيه كذا مرة بشنط دبلوماسية فيها تقارير محشية؟!

يضحك على القفشة.. ولأول مرة فى حياتى أشاهد رجلا يضحك وعشماوى ينتظره على حبل المشنقة.. وأضحك معه.. بينما من حولنا يضربون كفا على كف.. كيف يضحك من يلبس البدلة الحمراء؟!

أسرح بعيدا وأنا أشاهد آخر نسخة من الذين أدمنوا فتاجروا فهربوا فدمروا جيلا مصريا.. ولو تركناهم لدمروا مصر كلها من الداخل كما ينخر السوس فى الخشب، وكما يأكل الجراد الزرع والضرع..

....

....

نعود إلى صاحبنا فى ردائه الأحمر.. وقد انتعش قليلا.. وأصبح أكثر مرحا ونسى حكاية الجلاد الذى يستعد لشنقه وإزهاق روحه..

فاجأنى بقوله: ألم تذق فى حياتك طعم المخدرات؟

قلت: لم هذا السؤال الخبيث يافتى؟

قال: لأن من جرب الصنف وعاش ولو ساعة زمان واحدة متعة التوهان والسرحان والتجليق فى ملكوت عالم ساحر غريب غير عالمنا هذا.. لكان أكثر رحمة منك فى أسئلتك وقسوتك علىّ!

قلت: لو قدر لك أن تقرأ ما سأكتبه عنك.. ولم يتدخل عشماوى فى منتصف الطريق، لعذرتنى ولغيرت رأيك ولقلت كلاما آخر!

قال: لم يعد هناك ما أبكى عليه.. حتى المرأة التى أحببتها وأحببت التراب الذى تمشى عليه يوما.. غدرت بى وباعتنى بثمن بخس!

قلت: إحك لى!

قال كمن يستعيد شريط المواجع: كانت جميلة كفراشة.. ولكنها كانت تحمل فى صدرها قلب نمرة خبيثة.. ولا أعرف كيف يجتمع الجمال والدهاء فى قلب واحد.. أحببتها ولم أبخل عليها بشئ.. أنفقت عليها بسخاء.. عاشت معى كأميرة متوجة.. ولكنها رفضت كل محاولاتى للزواج منها بحجة أن الزواج سوف يقتل الحب!

قلت: من هى؟

قال: شريكتى فى هباب البرك الذى انغرست فيه لشوشتى.. كانت تسهل لى عمليات الرقابة والتمويه.. وتتدخل بذكاء ودهاء إذا وقعت فى مصيبة أو كدت أقع فيها..

وكنا نقتسم أرباحنا الهائلة مناصفة.. «فيفتى فيفتى».. حتى جاء يوم أخذت فيه حساب صفقة بمليون جنيه لنفسها.. وادعت إنها اضطرت لتركها فى المطار خوفا من الوقوع فى أيدى الشرطة المصرية.. وكانت تكذب!

وعرفت كل شئ وتكشفت أمامى خيوط الخديعة كلها.. فقد لافت على تاجر كبير عنده المليارات وأصبحت أسيرة له.. وأغراها بتركى ودبر لها الفوز بالصفقة الكبرى من دونى..

ولم أترك التاجر الكبير بالطبع.. انتقمت لكرامتى المسلوبة.. وأوقعت به للشرطة بعد أن وثق بى فوشيت به!

وعادت هى إلىّ ذليلة.. أو متظاهرة بالذلة والمسكنة.. ولكنها كانت كالأفعى ناعمة الملمس زاعفة السم..

وعرفت أنها جاءت لتنتقم لحبيب القلب الذى تركتنى من أجله.. ورغم معرفتى بها وبقدرتها على تلوين جلدها.. فتحت لها أبواب الأمان فى قلبى.. فدخلت وفى يدها سكين..

وباعتنى وأنا أحمل شحنة كبيرة من الصنف.. وكشفت لرجال مكافحة المخدرات أسرار الشحنة وأين أخفيها.. وسقطت كما يسقط الحجر فى بركة ماء أسن!

ولكننى قبل أن أسقط بتهمة تهريب المخدرات.. جررتها معى..

أسأله: إزاى يازناتى؟

قال: كنت محتاطا للأمر فوضعت بعضا من ملابسها وعطرها ودفتر تليفوناتها فى نفس الحقيبة التى بها الصنف.. وعندما أمسكوا بالحقيبة قلت أنها تخص عطيات.. وأمسكوا بها.. وأخذت حكما مخففا باعتبارها مرشدة!

ملحوظة: سم الزناتى وعطيات من عندى.

قلت: ولكنك حجزت لك مكانا فى طابور عشماوى!

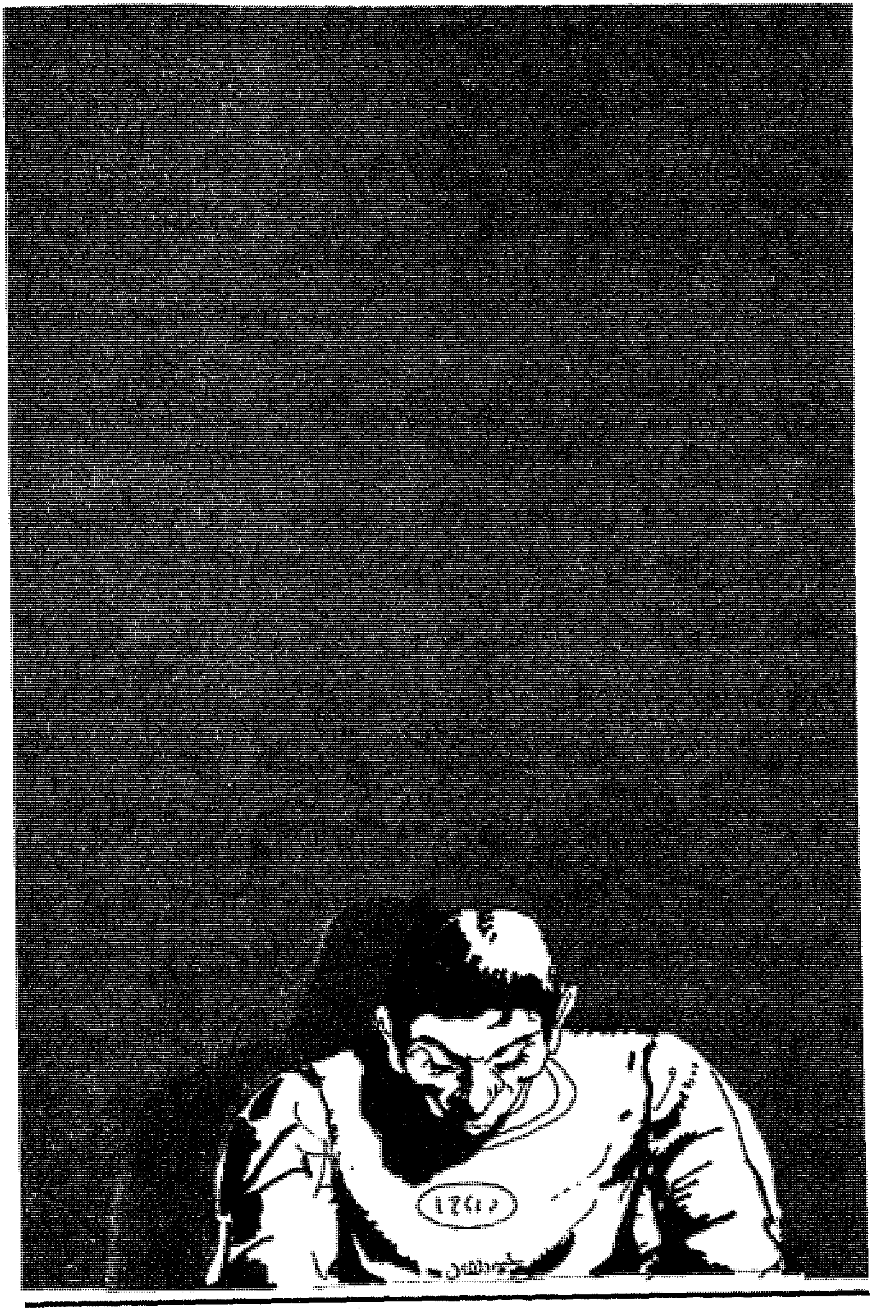
قال وقد عادت خيوط العنكبوت تكسو ملامح وجهه كله: عندك حق!

....

....

هذه القصة الحقيقية لم اكتبها للسينما.. ولم أكن أنوى تحويلها إلى مسلسل تليفزيونى وإن كانت تستحق.. ولكنها عبرة لمن يعتبر.. للأمهات اللاتى يتركن أولادهن وبناتهن للدادات والخادمات.. وللآباء الذين يتركون أسرهم هنا.. ويسافرون بالسنوات لبلاد النفط يبحثون عن الرزق الواسع.. ويفقدون أغلى ما عندهم فى هذه الدنيا أولادهم فريسة للإدمان والضياع ورفاق السوء!

وللرجال الذين يتزوجون ويطلقون ويتزوجون ويطلقون ويتركون خلفهم أولادا بالكوم.. ليسقطوا واحدا بعد الآخر فى مصيدة الجوع والفقر والأمية.. ولا يجدون صديقا أو رفيقا لهم فى هذه الدنيا إلا الشارع والرصيف والانحراف وأولاد الحرام.. وما أكثرهم فى هذا البلد! □



١١

الشيطان ليس دائماً أمرأه

* وتكلمت عطيات.. ولم أكن أتصور أنها سوف تتكلم.. وتقول وتعترف وتحكى قصتها وتبوح بروايتها من خلف القضبان..

وعطيات ـ وهذا ليس اسمها ـ هى رفيقة طريق الزناتى ـ وليس هذا اسمه ـ بطل قصة السقوط الكبير فى العفن والطين..

واذا كنت قد قابلت الزناتى وهو يرتدى البدلة الحمراء فى انتظار طابور الصباح الأسود الذى سوف يقوده الى عشماوى فى رحلة فى نهر بلاعودة.. إذا لم يكن قد ركب بالفعل زورق الرحيل.. فإننى لم أقابل عطيات لاخلف الأسوار ولاخارجها.. وإنما كان الزناتى قد رسم لها فى خيالى صورة المرأة الناعمة السحابة بلغة أهل الكفر فى بلدنا.. والتى تجمع بين الفتنة والمكر.. الجمال والدهاء.. الحسن والخبث..

وقال عنها الزناتى انها قاتلة الرجال بسحرها ودلالها ومكر الأنثى فى داخلها والذى يختبئ وراء قناع ترسمه هى ببراعة فوق وجهها تلونه تارة بألوان البراءة الهادئة.. وتارة بمساحيق الإغراء والدلع والتمسح بالرجل حتى يلين ويصبح مثل الخاتم فى أصبعها.. تلبسه ساعة الحظ وتخلعه عندما تريد أن تخلع من دنيا هذا الرجل!

هى باختصار كما رسمت لها فى خيالى حسب كلام الزناتى قطة جميلة ساحرة آسرة ولكن لها مخالب وأنياب!

تكلمت عطيات وبكت.. وحكت حكايتها التى قادتها الى خلف الأسوار.. حية ترزق وليست مثل رفيقها فى الشر والألم والندم الذى ينتظر طابور الصباح ليأخذ طريقه غير مأسوف عليه الى العالم الآخر..

وضعت كل آلامها وحزنها وندمها فى رسالة أرسلتها الىّ ليس عن طريق «البوستة».. ولكن أحدهم لاأعرفه ولم ألتق به.. ترك رسالتها بخط يدها وحملها بريد الصباح الىّ..

واكتشفت بعد قراءة رسالة عطيات الطويلة.. أننا عادة لانقول كل الحقيقة.. وإذا قلناها وضعنا أنفسنا فيها وعدلنا وبدلنا حسب هوانا نحن.. وحسب مانريد لزورقنا أن يسير.: وأى مرفأ سوف يقف عليه.

ولاتوجد حقيقة مطلقة فى هذا الكون الذى نعيش فيه..

الحقيقة المطلقة المجردة الوحيدة هى وجود الخالق عز وجل.. الذى خلقنا فسوانا فى أحسن صورة، ولكننا ملأنا الدنيا - شرورا وفجورا وجهلا وغرورا قبل أن نملأها بالخير والحق والعدل والجمال والفضيلة.

الحياة حقيقة.. والموت حقيقة.. والشمس والقمر والنجوم والكواكب والأجرام.. كلها حقائق مجردة.. لاجدال ولانقاش عليها.. ونزولنا الى الأرض مطرودين من الجنة بخطأ من أبينا آدم الذى سمع مشورة أمنا حواء.. حقيقة حتى تعمر الدنيا ويتبوأ الانسان فيها مكانته بوصفة خليقة الله في الأض.. حتى ولو كان كما وصفه الخالق سبحانه.. ظلوما جهولا!

ولم يخلق الله بعد انسانا يقول على نفسه إنه ليس على حق.. وإنه مخطئ وإن الآخرين على صواب.. وإذا قالها فلكى يخلص نفسه ويهرب من العقاب أو المطب الذى أوقع نفسه فيه..

وكل منا يتصور أنه يقول الحق والصدق.. وكلنا يتصور ان مايفعله هو الصواب.. وأنه يسير على الطريق الصحيح أما الآخرون فهم الذين قد انحرفوا وآثروا السير فى الظل والظلام وتركوا نور الشمس يتوهج فى كبد السماء!

بل انك تجد أقواما أو أفرادا ينكرون الحقيقة، كما ينكرون وجود الشمس نفسها.. ويتساءلون والشمس مصلوبة فوق رؤوسهم: أين هى هذه الشمس.. إننا لانراها؟!

حتى الذين يسرقون أو يحتالون أو ينهبون فى عز الظهر وأمام كل العيون وهم يبتسمون ويلبسون البدل السوداء و«البلاك تاى» لايدور بخلدهم لحظة زمان واحدة أنهم قد انحرفوا عن الطريق.. بل إن الصواب كل الصواب مايصنعون ومايقدمون للناس وللدنيا وللإنسانية كلها..

والذى يذهب ليسرق قبل أن يدس المفتاح فى باب الشقة يذكر الله ويستعين به بقوله: «يارب خرجنا من هنا على خير ورجعنا لأولادنا سالمين غانمين»!

حتى القتل أصبح شريعة فى الحرب والسلم.. لكى يحيا اقوام ويموت أقوام.. وترتفع أمم حتى ولو على جماجم أبناء أمم أخرى لاحول لها ولاقوة..

وأصبحت القوة والمال والنبال والبندقية والبارود فى زماننا.. أقوى من الحق.. بل إن الحق نفسه أصبح يخاف على نفسه من دوى المدافع.. وإذا لم تصدقون.. شاهدوا على شاشات التليفزيون ما يجرى فى البوسنة والهرسك.. شعب مسلم يباد ويقتل ويذبح ويمنعون عنه السلاح.. بينما يضعون البندقية فى يد القتلة من الصرب ويملأون مخازنهم وثكناتهم بالسلاح ويقولون لهم.. ماذا تنتظرون.. لانريد مسلما واحدا على أرض البلقان!

وما يجرى فى دولة الشيشان يؤكد أن الحق أصبح يقف الآن وحيدا مذعورا.. لايهم أن يموت شعب مسلم بأكمله ولكن المهم أن يبقى مستر يلتسين فوق كرسييه حتى ولو كان هذا الكرسى ملطخا بدماء المسلمين الذين شبعوا ذلا وهوانا فى هذا الزمان!

والأكابر من الدول فى زماننا ـ بزعامة أمريكا التى تدير بالريموت كونترول مصير البشر الآن ـ يتفرجون.. وينتظرون حتى نهاية آخر مسلم.. ثم يستنكرون ويشكلون محكمة لمحاكمة القتلة والسفاحين ومجرمى الحرب!

حتى الأمم المتحدة يدوسون على ميثاقها وينتزعون منها قرارات باسم الشرعية الدولية تبرر التدخل والقتل والتدمير ولاتجد غضاضة فى تشريد الشعوب غير النفطية وقتل أطفالها جوعا وبردا!

. . . .

. . . .

والآن تعالوا نقرأ ماقالته عطيات مفجرة المواجع.. فى رسالتها كما كتبتها بالألم والدمع دون تدخل منا ودون شطب أو حذف:

قرأت اعترافات الزناتى كما قالها لك.. وإذا كان هو ينتظر الموت على يد عشماوى فهو يستحق أن يموت ألف مرة جزاء مادمر وشرد وخرب وقتل من شباب مصر الصغير.. فإننى وللحق أود لو أمسك برقبته بيدى وأخنقه قبل عشماوى.. وأذيقه الموت بيدى أنا حتى أشفى غليلى منه..

كدت أقول لها دون أن تسمعنى وأنا أقرأ كلماتها: ياه.. أنت شايلة منه كتير قوى!

ترد علىَّ سطور رساتها: يوه.. أقولها وأكررها مائة مرة.. بعد مافعله بى .. لقد قلب حياتى رأسا على عقب.. وقادنى الى جحر الشيطان دون أن أدرى وكانه يقودنى الى ليلة عرسى!

لاأعرف حتى الآن كيف التقينا.. وكيف اجتمعنا، وكيف اتفقنا على لقاء آخر وثالث وعاشر، حتى أصبح أهم شئ فى حياتى.. بل أصبح حياتى نفسها.. بدونه لاأنام ولا آكل ولا أشرب ولا أتفرج على

التليفزيون إلا لأشاهد أغانى الغرام والهيام وأتخيل نفسى بطلة المسلسلات الرومانسية وأفلام الحب والعشق.. كنت مجنونة به هذه حقيقة لاأنكرها..

ولكننى الآن أكرهه وأمقته.. ويبدو أنه توجد شعرة واهية بين الحب والكراهية وبين العشق والبغضاء.. متى قطعت أطل ثعبان الكره والبغض من جحره وملك عليك زمانك ومكانك وأصبحت أسيرا له حتى آخر العمرا

لاأعرف كيف اجتمعنا وجمع الحب بين قلبينا.. وهو ابن الحارة والزقاق وأنا ابنة الزمالك والعز والأصول والحسب والنسب: . كان أبى وأمى من ملاك الأراضى والعزب والقصور والفلاحين.. وكان لنا عقارات وعمارات.. وكان أبى لايؤمن بتحديد النسل.. وكيف يحدده وهو جالس على خزائن قارون.. وهكذا جئنا الى الدنيا أنا وأخواتى السبعة.. كلهم صبيان وولدان.. وأنا الجميلة الأثيرة عند أبى وأمى بوصفى الأنثى الوحيدة التى خرجت الى الوجود فى واحة العز والرفاهية والدلع الزائد.. وعشت فيها طفولتى وسنوات نشأتى الأولى..

ولأننى «دلوعة العيلة» كما كانوا يطلقون علىّ.. فقد وجدت نفسى آمر فيلبى طلبى على الفور.. لاشئ أريده إلا أجده وبأكثر مما أريد.. وتصورت الحياة-رحلة حالمة فى زورق وردى فى ليلة قمرية فوق نهر فضى..

وكان يمكن أن تسير حياتى ملونة بألوان قوس قزح مزيجا بين الحلم والحقيقة.. ولكن الدلع الزائد والرفاهية بلا حدود وكلامى أوامر وزعلى يقلب الدنيا فوق دماغ الجميع.. قادنى بكامل إرادتى أو حتى دون أن أدرى الى دخول المصيدة.. وماأدراك ماالمصيدة!

....

....

أرشف رشفة من أول فنجان قهوة.. وعيناى تتابعان سطور رسالتها الصريحة..

تقول عطيات:

لماذا تصدقون الرجل دائما أو حتى غالبا وتكذبون المرأة.. والرجال أكبر الكذابين فى الأرض؟ كدت أقول لها وهى لاتسمعنى: المرأة تكذب كثيرا.. لأن الكذب هو سلاحها رقم أثنين بعد الجمال والدلال والاغراء.. وحتى تأمن شر الرجل أو انتقامه.. وحتى يسقط سريعا فى حبائلها الناعمة.. والمرأة تكذب باتقان وباحتراف.. ولكن الرجل يكذب عندما لاتسير الأمور كما ينبغى لها أن تسير.. ولكنه ليس محترفا فى الكذب وسرعان ماينكشف أمّره.. ولفرط ثقته فى نفسه.. يعترف الرجل بأنه كان يكذب.. ولكن المرأة لاتعترف أبدا بكذبها.. وتصر على موقفها.. وإذا واجهها أحد بالحقيقة.. لجأت للدموع لكى تخلصها من ورطتها.. فيغفر لها الرجل الأكثر طيبة!

لم تسمعنى عطيات بالطبع.. وتواصل حكايتها بقولها:

أريد رجلا واحدا يجيبنى لماذا تحملون أخطاءكم وخطاياكم على شماعة المرأة؟

لماذا تتصورون.. بل وتكادون تجزمون أن وراء كل جريمة تصيب الرجل.. أو حتى مصيبة من مصائب الدهر.. تقف امرأة؟

الرجال ياعزيزى هم الذين يصنعون الشر ويحكمون حلقاته ويرسمون له السيناريو ثم يقودوننا اليه.. لنسقط فيه معهم!

وعندما تنكشف الخديعة يصرخ الرجال ويولولون: المرأة هى السبب!

ياسيدى عندما يخطئ رجل يقولون فلان أخطأ.. وعندما تخطئ امرأة يلعنون صنف النساء كله ويقولون: هكذا المرأة دائما!

قلت لنفسى وأنا أرشف ثانى رشفة فى فنجان قهوتى بعد الافطار: والله عندك حق ياست عطيات!

وكأنها قد سمعتنى هذه المرة.. وترد على سطور كتبتها بقلمها: نحن المساكين معكم معشر الرجال.. نحن الشماعة التى تعلقون عليها كل خطأ وكل إثم ترتكبونه.. وهكذا فعل معى الزناتى..

كدت أسألها: ماذا فعل بك ياعطيات؟

وترد علىَّ سطور رسالتها: أخذنى من فوق النجوم الساطعة وهبط بى إلى الهاوية.. إلى سابع أرض.. إلى السقوط فى أحضان الإثم والجريمة والضياع.. سلب منى إرادتى وحولنى إلى قطة جميلة وضع فى عنقها سلسلة من الذهب ذات فيونكات حمراء وخضراء يمسك هو

بطرف السلسلة وتتبعه القطة المنومة تنويما مغناطيسيا كيفما يريد وإلى أى مكان يريد!

وهذه القطة المنومة المسلوبة الإرادة هى للأسف أنا..

قابلته أول مرة فى النادى. كان يجلس بعيدا ساهما كأنه مؤلف رومانسى يبحث عن فكرة جديدة لقصة جديدة.. كانت كل العيون مسلطة علىّ.. فأنا الحلوة الشقية ذات الحسب والنسب والمال والجاه.. ولفرط خوف أمى علىّ لم ترض أن أسوق سيارتى الشبح، كان لدى اثنان من السائقين وحارس خاص لايفارقنى لحظة ولكن من بعيد.. ووجدته - أقصد الزناتى - لاينظر إلىّ ولايعيرنى التفاتا.. وذهبت اليه أدعوه لكى ينضم إلى «شلة التهريج» وهو اسم شلتى فى النادى.. فقبل على مضض وكانت بداية معرفتى به..وتقابلنا أكثر من مرة.. وبدأت أتعلق به.. وتذوقت معه لأول مرة..أول شمة هيروين فى حياتى!

قدم لى التذكرة فى البداية من باب المجاملة.. ولأننى عشت أجمل لحظات حياتى مع مايصنعه الهيروين فى الإنسان.. عندما يتحول إلى عصفور طليق يحلق فى سماء الدنيا التى يراها بكل الألوان.. وكأنه رائد فضاء يطير وحده فى المجرات السماوية وسط النجوم والشموس والكواكب.. طلبت منه أن أشم مرة أخرى.. ثم ثالثة فرابعة حتى أصبحت مثله مدمنة هيروين.. وأنا لاأعرف أنه يتاجر فى هذا السم الذى لايرحم!

وبدأت أدفع ثمن المزاج والشم.. ثم أدفع له هو الآخر بعد أن أوهمنى انه يشتريه من تاجرة معروفة فى الباب الأخضر فى مصر القديمة!

ورحت أدفع له لأننى أصبحت «شمامة» مثله ولأننى أحبه ولا أطيق فراقه رغم أنه ابن الحارة وابن الزقاق وأنا بنت العز والجاه والمال والحسب والنسب!

وساءت صحتى.. وبدأت أمى تنظر إلىّ فى ريبة عندما أتأخر بالليل أو عندما أعود بعد أذان الفجر شبه مسطولة أو شبه مغمى عليها!

وتصورت أمى أننى قد أخطأت.. ولكننى طمأنتها بأننى مازلت بنتها العذراء الشريفة.. ولكى أصرف على اثنين أدمنا الهيروين ـ هو وأنا ـ كان يلزمنى كل يوم على الأقل خمسمائة جنيه..

من أين؟

خلصت علبة مجوهراتى.. بعتها أو سلمتها له كلها قطعة من بعد قطعة..

ثم مددت يدى إلى مصاغ أمى الذى ورثته عن أمها وجدتها.. واتهموا الخادمات زورا واحدة من بعد أخرى.. وكنت أبكى على كل واحدة يطردونها بسببى، وأنا لاأملك إلا أن أبكى حتى لاينكشف أمرى.. وكيف يمكن أن تصبح ابنة المدارس الأجنبية والحسب والنسب لصة وسارقة وشاهدة زور؟!

وكان لابد أن أهجر أسرتى وحياة العز والرفاهية وأذهب معه لألعب معه لعبة «دوخينى يالمونة». . وأعيش معه فى المستنقع الذى انغرس فيه!

طلبت من أهلى أن أكمل تعليمى فى فرنسا. . وقبلوا وسهلوا لى كل شئ. . وركبت الطائرة الى باريس وكان هو معى دون أن يعرف أحد. . وهناك بدأنا رحلة الصياعة والضياع!

باختصار شديد عندما يسقط إنسان فى الوحل لايهتم بالتفاصيل ويترك الأمور تسير به كما تريد. . ويصبح مثل الريشة فى مهب الريح. . أو لعبة من الورق عندما تسقط فى مجرى مائى سريع التيار!

اشتغلت فى الصنف. . وبعد أن كنت أوزع الصنف على الزبائن. . تحولت إلى تاجرة. . ثم إلى مهربة كان الزناتى يجيد استخدامى. . يقدمنى إلى الخواجات فى روما وباليرمو وهم من عتاة المهربين. . نسهر كلنا معا ثم نتفق على الصفقة التى نتبادل أنا وهو على حملها إلى القاهرة. .

ونجحنا أكثر من مرة. . وأصبح هو من كبار المهربين. . وكان بكل أسف يأخذ قيمة الصفقات له وحده. . ويضعها باسمه فى البنوك فى إيطاليا وليس فى القاهرة. .

كدت أسألها: لماذا لم تتزوجيه حتى الآن؟

تقول سطور رسالتها: طلبت منه أن يتزوجنى. . ولكنه قال لى بالحرف الواحد: اتجوزك ازاى بس هو أنا قدك. . ابنة البهوات كيف تتزوج من صعلوك مثلى؟!

وكنت أعرف أنه يتهرب مني. . فماذا بقى منى لكى يجعله يتزوجنى؟

كدت أقول لها ـ كما قال فى اعترفاته ـ إنه طلب منك الزواج وأنت التى رفضت؟

ولكنها تصيح فى رسالتها قائلة: أبدا. . هو كذاب. . كذاب. . ولو أشار إلىّ بطرف أصبعه لتبعته إلى آخر الدنيا!

أصبحت رخيصة. . رخيصة إلى أبعد حد. . وأنا بنت الناس وبنت الأصول. .

. . . .

. . . .

أترك رسالة عطيات. وكلى يقين أنها بكت كثيرا وهى تكتب كلماتها الأخيرة. .

أعود الى سطور رسالة عطيات واعترافاتها المثيرة. .

هى تسأل: لماذا يكذب الرجال على من يحبونهم. لماذا يلجأون إلى الخديعة واللف والدوران عندما يتأكدون أن المرأة قد أصبحت ملك يمينهم؟. . ولماذا يلقون بها ويتخلون عنها عند أول منعطف للطريق؟

لقد ظللت طوال رحلتى معه أدفع وأدفع وأدفع. . وأقدم وأقدم وأقدم. . وأضحى وأضحى وأضحى. . وأتنازل وأتنازل وأتنازل. . حتى لم يعد هناك شيء أقدمه. . أصبحت عبدة رخيصة وهو يكبر ويكبر ويفرد طوله وعرضه فى الكون كله!

كدت أسالها: كيف كانت تخرج من بوابات الدخول الى مصر ومعها السم الزعاف.

هى تقول فى رسالتها: كنت أركب الطائرات فى الدرجة الأولى والبس آخر موضة من باريس دائما ورائحة البرفان الذى أتعطر به تملأ صالة الوصول.. وكنت أتحدث بالفرنسية وبعض العربية كأننى خوجاية ولست امرأة مصرية لحما وشحما.. وفى حقيبة يدى كل شىء.. الأمر يحتاج إلى جرأة وأعصاب من فولاذ وعيون ثابتة وقدمين رأسيتين وأيدى لاترتعش أبدا مهما حدث!

عطيات مازالت تحكى وتقول..

حاولت أن أخرج من حياته عندما لاحظت اهتمام أحد كبار عتاة المخدرات بى.. الذى بدأ يتودد إلىّ.. ويعرض علىّ خدماته واسمه.. أراد أن يتزوجنى.. وكنت مترددة.. وقلت للزناتى فثار وهاج وماج.. خاف أن تضيع من بين يديه الدجاجة التى تبيض ذهبا.. ولكننى لم أهتم وقلت للرجل الذى أرادنى فى الحلال.. أنا موافقة.. وكدنا نتزوج.. ولكن الزناتى دبر للرجل مقلبا كبيرا.. دس له عند رجال مكافحة المخدرات.. فأوقعوا به وهو متلبس بـ ٥ كيلوجرامات هيروين نقى دفعة واحدة.. ودفع البقية الباقية من عمره ثمنا لهذه الوشاية.. وهو الآن يقضى عقوبة السجن المؤبد الذى لن يخرج منه.. فكيف يعيش الإنسان إلى مابعد الثمانين من عمره خلف الأسوار؟!

أسألها: وكيف وقعت؟

تقول سطور رسالتها: وقعت عندما وقع الزناتي.. جرني معه وقال للشرطة إنني شريكته في الصفقة.. ولم أكن.. المرة الوحيدة التي لم أكن شريكته.. سقطت بين أيدي العدالة.. غريبة عندما تكون متهما مذنبا تفلت.. وعندما تكون بريئا غاية البراءة تقع في المصيدة!

أبحث بين سطور رسالتها عن جواب لسؤال في مخيلتي: هل هي حزينة لأن الزناتي سوف يذهب إلى عشماوي؟

هي تقول: لكم أود لو أمسكت برقبته وخنقته لكي يموت أمام عيني ألف مرة!

لم تقل عطيات في رسالتها كم سنة سوف تمضي خلف القضبان.. ولم تقل هل هي راضية عما فعلت في حياتها؟..

كل ماقالته إنها غير نادمة.. وسوف تخرج يوما.. لكي تعود إلى أحضان أسرتها.. التي لاتعرف حتى الآن أن ابنتهم خلف الأسوار.. وهم مازالوا يتصورون ان ابنتهم ـ كما تقول عطيات ـ مازالت تدرس في السوربون!

أمزق رسالة عطيات.. حسب وصيتها لي.. حتى لا تدخل من جديد في سين وجيم!

....

....

اعترافات عطيات مثل اعترافات الزناتي.. أكتبها هنا للآباء والأمهات

الذين يغدقون على أولادهم وبناتهم بغير حساب ويتركون لهم الحبل على الغارب. . ولايسألون بناتهم: أين ذهبن ومن يصادقن. . ومن أين ينفقن؟ .

أيها الآباء انتبهوا! □

رقم الأيداع : ٧٣٥٧ / ٩٥

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

طائر الليل الأسود

أخطر الحروب على الإطلاق .. تلك
التي لا تطلق فيها رصاصة واحدة ..
ولا ينزف فيها أحد دما .. إنها الحرب
التي نخوضها الآن .. ونعيش بها
حزننا وجهلنا الأكبر ضد أخطبوط
الإدمان الذي أمسك بخواصر جيل
الأمل الذين يجودون من الدنيا .. يفرغ
فيهم سمه القاتل .. حقنا
وبلعا وشما !



هذا الأخطبوط القاتل الذي يعيش داخل
مثلث الشيطان وأبطاله الثلاثة .. المهرب
والتاجر والمدمن
ولقد غمس الكاتب الصحفي الكبير
عزت السعدني قلمه في مداد الألم
والندم .. ليكتب ويسجل بالكلمة وقائع
هذه الحرب الشرسة التي نخوضها الآن دون
أن نطلق حتى رصاصة واحدة
إنها حكايات مع الذين سقطوا
في براثن الإدمان وعصابة [illegible] الأزرق
وبينها .. حكايات حزينة حزن الدهر كله

كل حكاية منها تصلح أن تتحول إلى
فيلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني
يكشف لنا أسرار هذا المجتمع
وخباياه وبؤر فساده والعفن الذي
يسري في عروقه حتى النخاع

الناشر

ISBN : 977 - [illegible]